

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد
UNIVERSITÉ DE TLEMCEN



كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

الموضوع:

صورة الموريسكي في رواية "الحواميم" لعبد الإله
بن عرفة

إشراف:
أ.د شريف بموسى عبد القادر

إعداد الطالبة:
عمار لغواطي سعاد

لجنة المناقشة

رئيسا	بن سنوسي هشام	الدكتور
ممتحنا	بن زرقة شهيناز يسمة	الدكتورة
مشرفا مقررا	شريف بموسى عبد القادر	أ.الدكتور

العام الجامعي : 2019-2018/1440-1439

إهداء

إلى من كان لي سنداً وظهرها لمواصلة الطريقي العلمي، أبي الحنون
إلى تلك البسمة التي سهرت من أجل بلوغ مقامي هذا، أمي الحنونة
إلى فرحتي الوحيدة أختي وسام وزوجها مراد
إلى سندي في الحياة إخوتي أمين ونصر الدين
وإلى عماتي فتيحة وفطيمة
وعمي بن ناصر وزوجته وجميع أولاده
وابنة عمي نوال
أهدي هذا العمل

شكر وتقدير

أولاً أشكر الله تعالى الذي وفقني على إنجاز هذا العمل راجية منه سبحانه وتعالى أن يجعله عملاً نافعاً في الدنيا
ويجزيني ثوابه في الآخرة.

وفاء... تقديراً... واحتراماً إلى أستاذي الفاضل الدكتور الشريف بموسى عبد القادر الذي ساعدني على إنجاز هذا
البحث وتبعني من بداية عملي إلى نهايته وكان لي عوناً ومرجعاً، وأشكر أساتذتي الأفاضل أعضاء اللجنة المناقشة
لهذه المذكرة.

إن مأساة الموريسكيين بالأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، هي مأساة أخذت بعدا إنسانيا عالميا، حيث تعرضوا لكل أشكال الظلم والاضطهاد والتقتيل بالإضافة إلى محاولات طمس الهوية العربية الإسلامية على أيدي الإسبان المتشبع بنوازع الحقد والكراهية ضد كلمة مسلم أو إسلام أو حتى أي شيء يحيل إلى الثقافة الإسلامية بكل ما تحمله من عادات وتقاليد ولغة وتراث علمي، إذن لقد تجردوا من كل معاني الإنسانية وانحطوا إلى مستوى الهمجية والوحشية ليصنعوا بذلك تاريخا من أشد المحن دموية وإجرامية في تاريخ البشرية جمعا.

لذلك نجد الروائي المغربي عبد الإله بن عرفة يذكر المأساة في روايته حتى لا تنسى الإنسانية ما حدث لمسلمي الأندلس بعدما قدموا أرقى وأعظم حضارة دامت لأكثر من ثمانية قرون من العطاء الفكري والحضاري في كل المجالات والعلوم والفنون، ومن هنا نطرح الإشكالية:

- ✓ كيف عاجلت الرواية كفن أدبي قضية تاريخية هي مأساة الموريسكيين؟
- ✓ كيف رصد لنا الكاتب تفاصيل المعاناة اليومية للموريسكي في جو مشحون بالرعب والفرع من واقع مرير لم يعهدوه من قبل؟
- ✓ كيف صور إصرار هذه الأقلية المضطهدة على البقاء والمقاومة في واقع يقسو عليهم ويحاول اجتثاثهم من أرض الأندلس مسخرا كل الوسائل المتاحة من أجل إلغاء كل مقومات الشخصية الإسلامية الموريسكية؟
- ✓ كيف رسم صورة الموريسكي وهو يتعرض لأبشع وأقصى أنواع التعذيب في سجون محاكم التفتيش؟

أما أسباب اختياري لهذا البحث تمثلت في:

- الرغبة والفضول في التعرف على هذه الأقلية المضطهدة بالتعرض لتاريخهم الحي والشاهد على مأساتهم الخالدة.

- اهتمامي الكبير بالمواضيع التي تعالج القضايا الإنسانية لأن هذه الأخيرة تبقى دائما حية في كل عصر وإن مر عليها آلاف السنين.



وقد اعتمدت على المنهج التحليلي والوصفي والتاريخي في عملية البحث ، وقد جاء البحث مقسما إلى ثلاثة فصول، حيث خصصت الفصل الأول لتعريف الموريسكيين وتاريخهم، بينما تطرقت في الفصل الثاني لحياة الكاتب وأهم مؤلفاته، بالإضافة إلى تقديم عام للرواية، أما الفصل الثالث فقد تناولت فيه صورة الموريسكي الجسدية والنفسية والاجتماعية. وأنهيت بحثي بخاتمة فيها جملة من أهم النتائج.

وقد اعتمدت الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها:

* سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين لجمال يحيىوي.

* المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، صفحة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس لعبد الله محمد جمال الدين.

* مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس لمحمد علي قطب.

* محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها، وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفرندوس الإسلامي المفقود "الأندلس" لعلي مظهر.

ومن بين الصعوبات التي واجهتها في دراستي لهذا الموضوع: شساعة وعمق موضوع الموريسكيين، لذلك اضطررت لاختصار كثير من الأمور.

وفي الأخير نحمد الله بما يليق بجلاله على توفيقه لي، ونتوجه بالشكر الخالص للأستاذ المشرف الدكتور شريف بموسى عبد القادر، الذي لم ييخل علينا بتوجيهاته القيمة، التي كانت خير سند ومعين على مشاق البحث، ولا يفوتنا أن نتوجه بالشكر الموقر للجنة المناقشة.

عمار لغواطي سعاد

تلمسان في: 25-05-2019.



1. نبذة تعريفية عن الموريسكيين:

قبل الولوج في استعراض أهم التعاريف التي وردت عن مصطلح الموريسكي، والتي اختلفت وتعددت باختلاف آراء الكتاب والمؤرخين لا بد من الإشارة إلى الأصل الأولي التي اشتقت منه لفظة موريسكي ومنه (يرى المؤرخ الروماني سالوستيو (Salustio) أن أصل لفظة موريسكي اغريقي لاتيني فموري (Mauri) تسمية تطلق على فئة من الناس ذوي البشرة السمراء، وأصل الكلمة اغريقي مشتق من أموروس (Amaurus) والتي تعني داكن البشرة، ومنها اشتقت كلمة مورو (MORO) ويقصد بها شديد السمرة، ومن هذه الاشتاقات ظهرت لفظة موريسكي بمفهوم مغاير يحيل إلى معنى الإنسان غير المسيحي)¹.

أما الدكتور حسين مؤنس فيذهب «بعيدا في تحديد أصل الكلمة إذ يعود بها إلى العهد الروماني، فمورو، مشتقة من موري (Mauri) وتعني الداخلين تحت سلطان مسيحي، ومنها جاءت موريطانيا (Mauritania)* وتطورت كلمة موري إلى مورو الاسبانية وأصبحت تعني عربي أو مسلم، ومعلّل ذلك بإضافة كلمة (Vasallos) لمورو (Vasallos Moros) ومعناها العرب التابعون»².

فهما تعددت اشتقاقات مصطلح الموريسكي واختلفت المفاهيم حوله، فإنه مصطلح خاص بمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492، ومن التعاريف التي تحدد معنى مصطلح الموريسكيين عند الغرب نذكر تعريف ليفي بروفنسال في الطبعة الأولى من " موسوعة الإسلام "

¹ : ينظر: عبد الله حمادي، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492-1616)، دروب ثقافية، عمان، الأردن، 2016، ص 50.

* : التسمية التي أطلقت على سكان شمال إفريقيا الداخلين تحت سلطة الرومان.

²: جمال يحيوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، منشورات الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011، ص 42، عن حسين مؤنس، مقال حول فتوى الونشريسي " أسنى المتاجر فمن غلب على دينه من النصرارى ولم يهاجر " ، صفيحة بمعهد الدراسات الاسلامية، مدريد 1957، عدد 1-2، ص 139.

وهو «اسم يطلق في اسبانيا على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا على غرناطة يوم 2 يناير 1492، بعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر»¹.

كما وردت لفظة الموريسكيين في معجم الأكاديمية الملكية الاسبانية والتي «تطلق على العرب المسلمين الذين بقوا بعد السقوط سنة 1492 وعمدوا قسرا بعد استعادة اسبانيا»².

ولفظة المورسكيين «تسمية أطلقت سنة 1499 م على كل من هو عربي أو مسلم»³ و«استعملت رسميا في ملفات محاكم التفتيش عام 1520م»⁴.

كما جاء أيضا في قاموس التاريخ الاسباني تحديد معنى لفظة موريسكيين «بمسيحي اسبانيا المنصرين بالقوة بداية من القرن 16م»⁵.

إذن يمكننا أن نقول من خلال التعاريف السابق ذكرها أن لفظة الموريسكي ظهرت بعد سقوط غرناطة 1492 ولم يكن تداولها شائعا عقب سقوط غرناطة مباشرة، والجدير بالذكر أنها ارتبطت بالمسلمين الذين عاشوا بالأندلس في ظل حكم نصراني وكانوا مكرهين على اعتناق الديانة المسيحية، وتطلق هذه التسمية أيضا على المسلمين الذين ظلوا متمسكين بعقيدتهم الإسلامية.

¹ : عبد الجليل التميمي، تراجم طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الاسبانية والعربية والإسلامية منها، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات فيفري/ شباط 2011، تونس، ص 15.

² : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ : جمال يحيوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، ص 43 عن: Ravailard Martin :Morisque Bibliographie, paris 1982 T2. P :06.

⁴ : المرجع نفسه، الصفحة نفسها، عن : Ibid : p :07.

⁵ : المرجع نفسه، ص 44، عن: Diccionario de historia de espana, Madrid, 1970 T2. P :1130.

كما وردت تعاريف تخص كلمة موريسكيين في مؤلفات عربية مهمة بتاريخ سقوط غرناطة ومحنة الأندلسيين ومنها: «عُرف المسلمون الذين أُجبروا على التنصر باسم (النصارى الجدد) تمييزاً لهم عن النصارى الآخرين أو القدامى، وظل هذا الاسم مستخدماً حتى حوالي منتصف القرن السادس عشر حيث أُطلق على المنصرين من المسلمين اسم الموريسكيين، وهذا الاسم باللغة الإسبانية (Morisco) هو تصغير للفظ مورو (Moro) ويقصد بها التحقير والإساءة، وفي بعض الأحيان يعني (مسلم عربي وأحياناً مغربي وخاصة من يقطن منطقتي موريطانيا وطنجة)»¹.

في حين نجد أنه «ابتداءً من سنة 1526م تبلور كلمة الموريسكيين للدلالة على هؤلاء المسلمين المنصرين الذين يخضعون لنظام حكم نصراني في بلد نصرانية، وهي تصغير كلمة (Mors) التي تعني المسلم، فكلمة (Morisco) تعني إذن المسلم الصغير أو الذليل، وقد تطلق عليهم كلمة المسيحيون الجدد بدلاً من كلمة المدجنون (Los Mudejares) التي كان يعرف بها المسلم في بلد يحكمه النصارى»².

يمكن أن نقول من خلال التعريفين السابقين أن لفظة موريسكي وردت عند معظم المؤرخين العرب بمعنى واحد وهم المسلمون المنصرون الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، وتعني كذلك المسلمون الأذلاء أو الصغار (Los Moriscos) والجدير بالذكر أن هذه التسمية من شأنها أن تحط من قيمة المسلمين بهدف الإساءة والتحقير، وكانت هذه التسمية أيضاً مخصصة للمسلمين للتمييز بينهم وبين النصارى القدامى باعتبارهم نصارى جدد.

2. تاريخ الموريسكيين:

¹ : محمد عبده حتامله، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، عمان، الأردن، 2000، ص 1112.

² : عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1991، ص 49-50. عن: Juan regla : estudios sobre les moriscos, p 69, Barcelona. 1974.

قبل الحديث عن تاريخ المورسكيين ومحتهم التي بدأت من سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، والإخلاق بينود معاهدة تسليم غرناطة التي ضمنت حقوق المسلمين، لا بد من الإشارة إلى أن «الفتح الأولي لشبه الجزيرة قام به البربر، إذ أن حملي طريف وطارق كانتا مكونتين كلاهما تقريبا من البربر، فالمصادر تذكر بوضوح أنه عندما جمع ليرودريك Roderic، جيشا لقتال طارق أرسل هذا الأخير إلى موسى بن نصير طالبا النجدة فبعث إليه والي إفريقيا بخمسة آلاف مقاتل بربري، بالإضافة إلى سبعة آلاف كانوا معه، وبهذه القوة استطاع طارق بن زياد أن يخوض أهم معارك الفتح الإسلامي لإسبانيا وهي معركة وادي "بكة" أو "لكة" ويقهر الملك القوطي ويقضي على جيشه»¹.

وعليه استطاع طارق ابن زياد فتح الأندلس رفقة جيشه العظيم وبمساعدة جيش موسى ابن النصير، وبفضل اتحاد الجيشان هُزم جيش القوطي وتمكن طارق بن زياد من إقامة دولة إسلامية قوية وصل صداها إلى كل البقاع العالم.

وكلمة أندلسيين «تشمل بنظر المؤرخين المسلمين جميع السكان الخاضعين للإدارة الإسلامية في شبه الجزيرة على اختلافهم الكبير في الأجناس والعناصر وتباين الأصول التي جاؤوا منها إلى هذه البلاد من الخارج وعلى أهل البلاد الأصليين سواء اعتنقوا الإسلام أم لم يعتنقوه ممن كان يعيش في ظل الحكم الإسلامي»².

فالمجتمع الأندلسي الخاضع للإدارة الإسلامية ضم أجناسا مختلفة سواء كانت مسلمة أو معتنقة للإسلام وحتى السكان الأصليين الذين لم يعتنقوا الإسلام، وكل هذه الأجناس المختلفة

¹ : صلاح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1965، ص 29.

² : صلاح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، ص 19.

والمبتاينة الأصول ساهمت في تأسيس حضارة عريقة لم يشهد لها مثيل في العالم، والتي دامت أكثر من ثمانية قرون من العطاء الفكري والحضاري إلى أن بدأت الحملات الصليبية ضد المسلمين «وأخذ الاسبان في الاستيلاء على مدن الأندلس واحدة بعد الأخرى، فاستولوا على "قرطبة"، ثم جزر "البليار" و" بلنسية"، كما استولى أسطولهم البحري على "سبتة" وغيرها من ثغور المغرب، ثم استولوا على "اشبيلية"... ومازالوا يستولون على بلاد الأندلس وحصونه واحد بعد واحد، حتى لم يبق في يد المسلمين غير "غرناطة" بقيت في يد "بني الأحمر" لمنعتها وكثرة أهلها»¹.

إذن، بعد الاستيلاء على المدن الأندلسية وجعلها تابعة للسلطات الإسبانية، اتجهت الأنظار نحو مملكة غرناطة باعتبارها آخر المعاقل الإسلامية بالأندلس.

وفي هذه الفترة كانت غرناطة تمر بنوع من عدم الاستقرار السياسي والأمني حيث «تنازل أبو الحسن علي عن العرش لسوء صحته لأخيه محمد أبو الزغل الذي نال التأييد الشعبي وتوحدت الدولة بسطان واحد. وبعد إطلاق سراح أبو عبد الله الصغير من الأسر الإسباني (تم أسره عام 1483 بعد إعلانه الحرب على الإسبان) اتجه إلى حي البيازين فبايعه أهلها لتولي الحكم بدلا من محمد الزغل... وبذلك بدأت حرب أهلية بين الطرفين استمرت حوالي شهرين انتهت بعقد صلح بين الطرفين وتشكيل وحدة لمواجهة الإسبان»².

يمكن القول إنّ الحرب الأهلية التي اندلعت بين الطائفتين بسبب عدم التفاهم والاتفاق بحيث كان يسعى كل طرف لتولي السلطة، وبالإضافة إلى سوء التسيير والتخطيط كلها أسباب مهّدت لسقوط غرناطة.

¹ : محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، مكتبة القرآن، القاهرة، 1985، ص 27.

² : مشتاق بشير الغزالي وإلهام محمود كاظم، اضطهاد مسلمين الأندلس (الموريسكيون- Moriscos) في عهد شارل الأول (كارلوس الخامس) 1516-1556، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، العدد 20، السنة الحادية عشر، 2017، ص 19-20.

بما أن غرناطة كانت آخر مملكة إسلامية بالأندلس عمل الإسبان على استرجاعها مستغلين الخلاف بين "أبي عبد الله بن أبي الحسن" وبين عمه "الزغل"، فلما «خرج الزغل إلى وادي "آش" استولى ابن أخيه "أبو عبد الله" على غرناطة وكان حليفا للإسبان القشتالين، إلا أن الإسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم، فأرسلوا إلى "الزغل" من يزيد نار الفتنة وأوارا بينه وبين ابن أخيه، فسار معهم لحربه، وكان "فرديناند" غاضبا عليه وحاقدًا لأنه لم يسلم له حصن الحمراء، وسلطوا على "الزغل" رجلا من بني الأحمر اسمه "يحيى" كان قد تنصر ويعيش في "اشبيلية" فزين له التنازل عن وادي "آش" لـ"فرديناند" نظير مال كثير والذهاب إلى بلاد المغرب...، فقبض المال وذهب إلى فاس»¹.

إن الفتنة التي وقعت بين "أبي عبد الله" وبين عمه "الزغل" والتي زاد العدو من تأجيج نارها خصوصا عندما استولى "أبو عبد الله" على العرش مرة ثانية مستغلا غياب عمه، كانت سببا في إضعاف عزيمته جيش المسلمين وعجزهم، مما زاد الإسبان قوة وإتحادا وسهل عليهم إقناع "أبي عبد الله" بتسليم غرناطة لهم بعد كفاحه الذي باء بالفشل.

«ففي 6 يناير 1492م، 6 ربيع الأول 897هـ دخل الملكان منتصران إلى غرناطة تقدم الموكب الملكي حتى وصل إلى المسجد الجامع الذي حول إلى كاتيدرائية وهناك صلى الملكان صلاة شكر وعزفت الجوقة ألحانا وأناشيد دينية وقد انضم إليهما كبار رجال الحاشية والفرسان، ولما تم الحفل الديني دخل الملكان إلى قصر الحمراء من باب القضاء الكبير»².

¹ : محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ص 31-32.

² : واشنطن ايرفينج، سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، ترجمه وعلق حواشيه اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 476.

يعد دخول الملكة ايزابيلا وزوجها فرديناد إلى غرناطة وإقامة حفل ديني بمناسبة هذا الفتح أعظم إنجاز وانتصار حققه هاذان الملكان باسترجاع وتوحيد بلادهم التي كانت تحت سلطة وإدارة الدولة الإسلامية.

«كانت غرناطة آخر الممالك الأندلسية الذاهبة، التي توج ظفر اسبانيا النهائي باسترداد أراضيها القديمة كاملة، والقضاء على التواجد الإسلامي فيها»¹. إن الاستخفاف بالأمور والتهاون واتباع المصالح الشخصية دون التفكير في مصير الأمة الأندلسية والتواطئ مع العدو، جعل اسبانيا تحقق حلمها المتمثل في وحدة ترابها والعمل على مشروع جديد ألا وهو إبادة أمة بأكملها.

والجدير بالذكر أن تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا من قبل أبي عبد الله تم وفق معاهدة، والتي من شأنها أن تضمن حقوق المسلمين في مملكة غرناطة، وتضمن كذلك لهم الأمن والأمان على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وكانت هذه المعاهدة «بتاريخ 12 محرم 897هـ الموافق لـ 25 نوفمبر/ تشرين الثاني 1491م»².

ومن بين أهم البنود التي جاء ذكرها في هذه المعاهدة «حرية ممارسة الشعائر الإسلامية والمحافظة على المساجد وقوانين التشريع الإسلامي (البند 4)، الحق للمسلمين في الاحتفاظ بأسلحتهم وذخيرتهم (البند 5)، لمسلمي غرناطة حرية البقاء أو الهجرة إلى أي مكان يرغبون دون قيد (البند 6)، لا يرغم المسلمون على وضع أي إشارة مميزة (البند 8)، يمنع على النصراري دخول

¹ : عبد المحسن طه رمضان، تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الفكر، عمان، ط1، 2011، ص 449.

² : جمال يحياوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، ص 105.

المساجد دون إذن (البند12)... لا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية (البند 32)»¹.

لكن ما حصل هو عكس ما ورد في هذه المعاهدة بحيث «بعد سنتين تنكروا لكل هذه الوعود، وفرضوا على الموريسكيين إما التعميد قسرا وإما المغادرة»². إنها بداية المأساة والمحنة وبداية سلسلة العنف والاضطهاد عندما يخير الموريسكي بين التنصير أو النفي.

لقد عاش الموريسكيون فترة عصيبة تتسم بكل أنواع الحزن والأسى، بسبب الوضع الجديد والذي يتمثل أساسا في احتلال مرير مجرد من كل معاني الإنسانية، وبذلك كثرت المضايقات والتحرشات ضد الموريسكيين وكان هدف «فيرناند مع ايزبيلا هو القضاء على الإسلام وتحويل كل سكان شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الكاثوليكية، وما كان ليهدأ لهما بال أو يهنأ لهما عيش إلا بعد أن تجتث كل جذور الإسلام، وتصبح البلاد كلها كاثوليكية لهذه الغاية عملا، وفي سبيلها يهون كل شيء حتى الأيمان والعهود والمواثيق والشرف الملكي»³.

ومن هنا بدأ التنكر للعهود تدريجيا ونقض أهم بند الذي يخول للموريسكيين حرية ممارسة شعائرهم الإسلامية.

«لقد استدعي الكاردينال "خمينيس دي سيستيروس" ليقوم بمهمة تنصير المسلمين فوصل إلى غرناطة في أكتوبر سنة 1499، وطلب من الأسقف إتخاذ أنجع الوسائل لهذا التنصير، وجمع فقهاء المدينة وأعيان المسلمين، وطلب منهم أن يتنصروا حتى يكونوا قدوة لغيرهم، ووعد وتهدد

¹ : جمال يحياوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، ص 106-107.

² : عبد الجليل التميمي، تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الاسبانية والعربية والاسلامية منها، ص 19.

³ : عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، ص 34.

وقدم المنح والعطايا، فتنصر بالفعل بعض هؤلاء وتبعهم عدد كبير من أعوام الناس»¹. إن سياسة التنصير كان الهدف من وراءها إجتثاث جذور الإسلام من قلوب المسلمين.

ولكن بالعكس «ظل الإسلام ينبض في قلوبهم، حتى بعد أن اضطروا لاعتناق المسيحية ظاهريا، وحتى بعد أن اضطروا بعض أبنائهم بسبب تخوفهم لدخول المدارس الدينية الكاثوليكية، واختيارهم قسسا وأساقفة، تظاهروا بممارسة الطقوس المسيحية في العلن إلا أنهم ينصرفون بعدها، ويختلون إلى أنفسهم... لممارسة طقوسهم الإسلامية في السر»².

اضطرّ المورسكيون لممارسة طقوسهم وشعائهم الدينية سرا والتظاهر بالولاء للدين المسيحي علنا خوفا على أنفسهم، وهذا أكبر دليل على حرصهم وإخلاصهم للدين الإسلامي.

وحتى تنجح سياسة التنصير القسري كان لا بد من تحويل المساجد إلى كنائس باعتبارها مكان مقدس لها حرمتها وفيها تقام العبادة لذلك «كانت المساجد أمامهم مجالا رحبا لإكمال مؤامراتهم التي بدأوها على هذا الدين فتم الشروع بتحويل المساجد إلى مصليات وكنائس و أديرة وكاتدرائيات ضخمة، بعد أن كان يرفع في مآذنها اسم الله بالتكبير أضحت أبراجا للنواقيس، وبعد ما عجت جدران المساجد بآيات من القرآن الكريم أصبحت تعج بالصور والمشاهد الدينيّة المختلفة وزخرفت بما يتلاءم مع النفس المسيحية الإسبانية»³.

إنه ظلم في حق المسلمين وانتهاك حرمة المسجد وتشويه وجعله كنيسة أمر في غاية الوضاعة، مع العلم أن المسلمين قدموا أفضل نموذج للتعايش مع الآخر رغم اختلاف الأديان، فهؤلاء المحتلين الجدد طبقوا كل سياسة من شأنها أن تلحق الضرر النفسي بهم «متناسين سماحة

¹ : عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون، ص 35-36.

² : عبد الجليل التميمي، تراجيديا طرد المورسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية والإسلامية منها، ص 15.

³ : نزار علي الطرشان، مساجد حولت إلى كنائس دراسة تاريخية معمارية في الأندلس، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية للنشر والتوزيع، الأردن، اربد، ط1، 2010، ص 37.

الإسلام والدولة الإسلامية التي كفلت في أوج عظمتها حياة طيبة لم يتعرضوا فيها لأذى لا في أنفسهم ولا أموالهم ولا بيعهم»¹.

قام الموريسكيين بالثورة ضد الكنيسة وأحكامها الجائرة، رافضين ذل المسيحية مفضلين التضحية ومن أهم الثورات التي قام بها الموريسكيين «ثورة البيازين عام 904هـ / 1499م قامت هذه الثورة كرد فعل لما عاناه المسلمون من قسوة محاكم التفتيش وما عانته العقيدة الإسلامية في محاولات لطمسها والخلاص منها، فلم يقبل أهالي حي البيازين وهو حي من أحياء مدينة غرناطة بذلك الوضع مما أدى إلى ثورتهم»².

بالإضافة إلى «ثورة البشرات عام 906هـ / 1501م تقع منطقة البشرات جنوبي غرناطة، أما الثورة التي اندلعت بها فقد كانت مشابحة للثورة في البيازين إضافة إلى ما أصاب أهل البيازين من الظلم والقهر كان حافزا لأهل البشرات على أن يهبوا بكل طاقاتهم لنجدة إخوانهم ثورة منهم على السلطات الكنيسة في غرناطة»³.

فالثورة عموما تكون عبارة عن رد فعل اتّجاه وضعية معينة والهدف منها التغيير، لذلك نجد الموريسكيين ثاروا على الكنيسة التي حاولت بشتى الطرق طمس العقيدة الإسلامية، وكان غرضهم الأساسي من القيام بالثورات الحفاظ على النفس والعرض واللغة والدين.

لم يهدأ بال رجال الكنيسة بتطبيق سياسة التنصير القسري ضد المسلمين وإلحاق العذاب بمن يمارس الشعائر الإسلامية، بل زادت من ترجمة حقد الصليبي ضد الإسلام والمسلمين بحيث

¹ : المرجع نفسه، ص 38.

² : المرجع نفسه، ص 28.

³ : المرجع نفسه، ص 29.

«اشتدّ الديوان في تتبع المنتصرين واضطهادهم، فمن نطق بالعربية، أو استحم أو حجب النساء، أو لبس الأزياء الإسلامية، فهو كمن أقام الدليل على ردّته وكفره، والويل له من التعذيب»¹.

نستنتج من هنا أن الكنيسة جندت الديوان وأوكلت إليه مهمة متابعة المنتصرين لاضطهاد الموريسكيين من خلال منعهم من التكلم باللغة العربية، ومنعهم من الطهارة، إذن إنها محاولة استتصال كل ما يمت بصلة للإسلام وعاداته.

حتى التراث العلمي لم يسلم من الهمجية ومن الحقد الصليبي (ففي 12 يناير سنة 1501 ارتكب الكردينال "خمينيس دي سيستيروس" أكبر جريمة في حق الموروث الثقافي والعلمي حيث أمر بجمع الكتب والتي تقدر بمليون وخمسة آلاف كتاب وهناك من قدرها بخمسة آلاف وهناك من جعلها ثمانين ألف وأمر بإضرام النار فيها جميعا)².

لم تغفل السلطات الإسبانية كذلك من حظر السلاح على الموريسكيين بحيث «في سبتمبر سنة 1501 صدر قانون يجرم على المسلمين إحراز السلاح سرا وعلنا، ويتعرض المخالف لعقوبة الحبس ومصادرة الممتلكات في المرة الأولى، فإذا ما تكررت المخالفة قضى بالإعدام على المخالف»³.

وعليه فإن كل الإجراءات والأساليب المتخذة من شأنها قهر المسلمين والتضييق عليهم لذلك كانت محاكم التفتيش تصدر دائما قائمة التهم التي يجب التبليغ عنها ونذكر منها «إذا قالوا أن الدين الحمدي هو الأحسن، وأن المسيح كان نبيا وليس إلهًا، وأن والدته لم تكن عذراء، وأنه إذا سمعنا أو رأينا أن المسيحيين الذين تم تعميدهم يقومون ببعض طقوس أعياد الدين الحمدي مثل

¹ : محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ص 60.

² : ينظر: عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، ص 45.

³ : عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، ص 45-46.

الاحتفال بيوم جمعة وبأكلهم اللحم، وقولهم بأنه حلال وكذلك تزيينهم بقميص نظيف وألبسة أحسن من بقية الأيام الأخرى...»¹.

لقد سعت السلطات الإسبانية إلى تطبيق سياسات تعسفية هدفها مصادرة الأملاك من أصحابها لأنهم كانوا من الطبقة الغنية جدا وعليه أصدرت أمرا « في الفترة من 1559 - 1568 يقضي بمراجعة حدود الأراضي والعقارات وإبراز مستندات ملكيتها، وفي حالة عدم توفرها فإن المستولي عليها سيكون عليه أن يدفع غرامة وإلا صودرت الأراضي وأعيد بيعها»². فمصادرة الأراضي والعقارات لون جديد من ألوان السلب والنهب والهدف منه الاغتناء من أموال الموريسكيين.

طبعاً أمام هذه القوانين الجائرة والسياسات التعسفية التي طبقتها محاكم التفتيش، أصبحت نفسية الموريسكي مطبوعة بالحقْد والخوف اتجاهها.

نستنتج مما سبق ذكره أن الموريسكي عومل بقسوة بالغة، وتعرض للظلم والاضطهاد بكل أنواعه، بحيث سعت السلطات الإسبانية إلى تجريد أمة بأكملها من لغتها ودينها وعاداتها، وبلغت الإهانة درجة التعذيب والقتل والحرق وطبقت في حقه أقصى العقوبات وذلك إن تبث أن الموريسكي لا يزال على العقيدة الإسلامية في حين «تعايش المسلمون والنصارى في الأندلس زمناً طويلاً، وكان كل واحد من الفريقين سيّداً في أرضه، ويتعاملان مع بعضهما معاملة المثل بالمثل، ولكن بعد دخول الملكين الكاثوليكين غرناطة أصبح المسلم فيها وفي غيرها من أنحاء الأندلس مهزوماً، وبدأ ضغط المنصرين وقهرهم يشتدّ يوماً بعد يوم، وانتهكت المعاهدات والمواثيق»³.

¹ : جمال يجاوي، سقوط غرناطة الأندلسيين، ص 236.

² : عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، ص 71-72.

³ : محمد عبده حتامله، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 1093.

* : تعرف أيضاً باسم ديوان التحقيق والسجن التابع لها هو البيت المقدس، أما الموريسكيون فقد سموها بمحكمة الشيطان.

لقد قدم الموريسكيون أفضل نموذج للتعايش مع الآخر داخل مجتمع واحد، لكن الملكين الكاثوليكين بمجرد دخولهما غرناطة تنكروا لكل العهد التي ضمنت حقوق المسلمين.

وما لا شك فيه أننا نستطيع أن نلتمس البعد الاضطهادي والنفسي الذي عاشه الموريسكي بسبب الإجراءات القاسية والأساليب الوحشية التي اتبعتها محاكم التفتيش بحيث «كانت العقوبات الرئيسية التي تصدرها محاكم التفتيش* في النصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي هي السجن المؤبد والإعدام ومصادرة الأموال، وهذه الأموال المصادرة كان يذهب النصيب الأوفر منها للسلطات الدينية والبابوية، والباقي تحصل عليه السلطات المدنية»¹.

يمكننا القول إن تطبيق سياسة مصادرة الأموال يترجم الحقد والحسد اللذان كانا يحتلجان مشاعر رجال محاكم التفتيش اتجاه المسلمين الذين بلغوا قمة الغنى والترف.

أوكلت السلطات الإسبانية مهمة التنصير لمحاكم التفتيش وهذه الأخيرة أبدعت وتفنتت في اختراع آلات رهيبية من شأنها إجبار ضحاياها على الاعتراف بخطاياهم وإكراههم على اعتناق المذهب الكاثوليكي نذكر منها: «دواليب وسحابات ذات مسامير صادئة حادة لتمزيق الأجساد، وعضاضات حديدية لعض اللحم... وكلايب ذات رؤوس حادة لسحب أئداء النساء من الصدور، وآلات لسلس اللسان من أصله، وأخرى لتكسير الأسنان، وأحذية حديدية تحمي لدرجة الاحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ووقع في يد أولئك الوحوش.... ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة أيضا في نواحي مختلفة في السقف ليربط فيها السجنين وبينها، فتجاذبه وتمزق أعضائه تمزيقا في جهات عديدة»².

¹ : محمد عبده حتامله ، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 1099.

² : علي مظهر، محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية، بيروت، 1996، ص 84.

كما « كانت آلات كثيرة لطى الإنسان وكسر عظام ظهره، ثم أخرى لإنزال نقط الماء البارد على رأسه بعد حلق شعره نقطة نقطة حتى يجن المسكين بعد ساعات أو زمن قليل، ثم اسفنج تغمس في الماء المغلي لسلق المعذب، ومطارق ثقيلة لسحق الرؤوس...»¹.

لقد طعن الموريسكي في كرامته وانتهاك حرمة جسده بتعريضه لأقصى أنواع التعذيب بآلات رهيبية تقشعر لها الأبدان بمجرد وصفها، إذن يمكن تخيل مدى إحساس الموريسكي بالضعف والذل والإهانة وهو بين جلاديه الذين انحطوا إلى مستوى دون الإنسانية، بتلذذهم بمنظر ضحاياهم وهو يمارسون هواياتهم المفضلة.

ولاضطهاد الموريسكيين أكثر قاموا باختراع «آلة حديدية كانوا يضعونها في فم المعذب المسكين عوضاً عن المناديل التي توضع لمنع الصياح، وقد جعلوا في تلك الآلة مربعاً على هيئة الصليب ليتنفس منه المعذب ولا يمكنه الصراخ منه»². إنه أسوأ وأحقر ظلم عرفته البشرية جمعاء من خلال ابتكار آلة تمنع المعذب من الصراخ بفعل الألم الذي يمزق جسده، وحتى يزيد العذاب فوق العذاب.

واتّبع محاكم التفتيش أبشع صور التعذيب سواء كان المعذب رجل أو امرأة فلا فرق بينهما مثلاً طريقة «التعذيب بواسطة تمزيق الأعضاء»³ بحيث «يعلق الرجل أو المرأة إلى السقف وتربط كل رجل إلى حبل مثبت في بكر في الزوايا الأربع للغرفة، وتوضع أثقال في أطراف تلك الحبال كل ثقل منها مائة كيلوغرام، فتجذب تلك الأثقال أطرافه ويبقى المسكين كأنما هو نائم وهو معلق في الفضاء وتتمزق أطرافه على هذه الكيفية إن لم يعترف لهم بكل شيء وهم يسألونه أثناء إجراء

¹ : المرجع نفسه، ص 85.

² : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ : علي مظهر، محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها، ص 97.

العملية، وكلما أصر على السكوت وعدم الإجابة زادو في وضع أُنقال جديدة ويبقى كذلك حتى يموت»¹.

كانت العملية الإجرامية في غاية البشاعة، لأن محاكم التفتيش تخضع المعذب لأبشع أصناف التعذيب بحيث يعجز اللسان عن التعبير عنها، وتزيد من إجرامها حتى يعترف الضحية تحت طائلة التعذيب بما تريد سماعه، وإن لم يستسلم لطاعتها ولإرادتها تواصل تعذيبه حتى آخر نفس له، وعليه «كانت تلك العصابات تبيح لأفرادها التفنن في أعمال القسوة وابتزاز الأموال والاستيلاء عليها والفتك بالأعراض بدرجة لا تباريها فيها أكبر عصابات القتل المجرمين منذ عرف تاريخ الإجرام حتى اليوم»² و«قد كانوا يعاقبون بالظنة ويأخذون بالشبهة ويحرقون الأطفال ويهقون الشيخوخ والعجزة والنساء الضعيفات بصنوف العذاب وألوان الاضطهاد وشتى الوسائل الجهنمية من الإجرام»³.

أرادت محاكم التفتيش إخضاع كل شيء لإرادتها وبما يخدم مصالحها وسحق كل من يقف عائقاً أمامها وأمام مذهبها الكاثوليكي، ولذلك سعت لمحو الوجود الإسلامي من الأندلس بصفة نهائية من خلال إصدار مجموعة من القرارات والمراسيم مفادها ضرورة التهجير القسري لكل مسلمي الأندلس ما بين سنوات 1609 و 1614م.

وعليه كانت مشاهد أحداث التهجير القسري محزنة ومأساوية لم يشهد تاريخ البشرية مثلها «...أودية من البشر من مختلف الأصناف ، فقراء وأغنياء علماء وجهلة، نساء ورجالا وأطفالا وبناتا، شيوخا وعجائز يحفّ الجميع أنين... إنها مسيرة محتومة يحيطها جو من الرعب والحقد لوجوه كالحة تتلمّظ حقدا وكراهية وتنتظر بفاغ الصبر لحظة الخلاص من هذا الخطر المتشبث

¹ : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² : المرجع نفسه، ص 80-81.

³ : المرجع نفسه، ص 81.

باسبانيا، الأرض التي يغادرونها مكرهين في ظروف عدائية بعد تسعة قرون عددا من الحضور المشرق والعطاء المستمر التجدد»¹.

لقد كان الوجود الموريسكي في اسبانيا يشكل خطرا عليها بالإضافة إلى الكراهية والحقد اتجاه هذه الأقلية المضطهدة لذلك وجب استئصالها من أرض الإسبان نهائيا.

في هذا الجو المشحون بالرعب والفرع من مصير محتوم كان الموريسكي يعيش حالة ضياع وتشتت بسبب تشريده وطرده، والجدير بالذكر أنها كانت «... مسيرة متعبة ومكلملة بالعذاب بحيث لم يسمح لهم فيها بأبسط الوسائل النقل، وكل ما يرغب فيه الفرد عليه أن يتجشم معاناته على ظهره وله أن يختار بين المتاع والولد لأنه لا مجال للانتظار ومدّ يد المساعدة...»².

بالرغم من إلحاق الآلام والأوجاع جراء هذا التهجير القسري لم يكن ليشفي غليل الأعداء إلا بمواصلة معاملتهم السيئة وإهانتهم لدرجة يخيّر فيها الموريسكي بين المتاع أو الولد أمر لا يتقبله المنطق إذن حتى التهجير جُرد من كل معاني الإنسانية.

طبعاً أمام هول المأساة وتجرّد الموريسكي من هويته العربية الإسلامية وسلب ونهب ممتلكاته بواسطة إصدار قرارات ومراسيم تعسفية، بالإضافة إلى الإهانة والجرائم البشعة المرتكبة ضده أصبحت الحياة صعبة ومريرة وموسومة بكل أنواع الشر والاضطهاد وكختم هذه المأساة يقرر مصير الموريسكيين بطردهم ونفيهم بصفة نهائية من بلاد الأندلس لتكون بذلك دول المغرب العربي الوجهة الرئيسية والملاذ الآمن لهم.

«وقد بدأت الهجرات الأندلسية إلى المغرب منذ سقوط طليطلة سنة 487هـ/ 1085م، ولكنها كانت هجرة محدودة ثم تزايدت بعد تساقط المدن الأندلسية الرئيسية في يد الإسبان في

¹ : عبد الله حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1616-1492)، ص 63.

² : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أواسط القرن الثالث عشر نتيجة للضغوط والعسف الذي مارسه الإسبان ضدهم. ثم بلغت الهجرة أوجها بعد سقوط غرناطة سنة 1492م ثم بعد صدور قرار التهجير القسري سنة 1609م حيث جرى الفصل الأخير من الهجرة إلى أقطار المغرب العربي وغيره»¹.

وعليه لقد فتحت دول المغرب العربي أبوابها لهؤلاء المستضعفين بصدر رحب وبالمقابل نجد أنها استفادت من خبرات مسلمي الأندلس لأنهم «احتملوا معهم على أيديهم صناعة الأندلس، وفي صدورهم هم أهلها، ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة إلى حيث ألقوا عصا تسيارهم، فأخذت عنهم فنون، وشاعت بواسطتهم صنائع، وانتشرت بسببهم فوائد، وكانوا مع رثاثة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الأيدي إلا من زهيد المتاع يمثلون حيثما حلوا قطعة من الأندلس ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معاشهم وسائر شؤونهم ومآخذ مسحة أندلسية تمتاز بالذوق، وتدل على الأصالة في التمدن»².

لا يمكن إنكار الحضارة العريقة التي أسسها الأندلسيون في بلاد الإسبان ولا تزال المنشآت العمرانية إلى يومنا شاهدة على هذه الحضارة، كما بلغوا أرقى مراتب العلم والتطور في كل المجالات سواء صناعة أو زراعة أو عمران، لذلك عندما هاجروا إلى أقطار المغرب العربي نقلوا معهم ثقافتهم وفنونهم وجميع خبراتهم التي تدل على قدرتهم وإبداعهم وتمكنهم لأنهم أصحاب ذوي كفاءات عالية ومهارات متميزة ومبادئ أخلاقية وقيم إنسانية.

¹ : محمد عبده حتامله، الأندلس التاريخ الحضارة والحننة، ص 896.

² : الأمير شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1403هـ/ 1983م، ص 306.

1. ترجمة سيرة عبد الإله بن عرفة:

أ- حياته:

يعتبر الروائي المغربي عبد الإله بن عرفة من الروائيين المغاربة، الذين بدأوا يمكنون لأنفسهم ولرواياتهم داخل المقروئية العربية وعليه «ولد عبد الإله بن عرفة بمدينة سلا عام 1962، حائز على دكتوراه في اللسانيات من جامعة السوربون بباريس، هو خبير في منظمة الإيسيسكو، وباحث في اللسانيات والتصوف والفكر الإسلامي، أسس عبد الإله بن عرفة ما سماه بالأدب الجديد وهو مشروعه السردي العرفاني ذي المرجعية القرآنية، والتي يرى فيها مفهوم مختلف للأدب حيث أن غاياته المعرفية تكمن في إنتاج أدب معرفي يحقق تحولا في وجدان القارئ ومعرفته وسلوكه»¹.

وللروائي بن عرفة «عدة دراسات وطنية ودولية منها كتاب باللغة الفرنسية عن نشأة المفاهيم، بدار المنشورات الجامعية بباريس بالإضافة إلى مشروعه الروائي والذي يشمل لحد الآن العديد من الروايات العرفانية، إضافة إلى عدد من الدراسات والتحقيقات العلمية لأمهات كتب التراث الأندلسي، وتقديمات كتب»².

ب- أهم مؤلفاته:

- إصدار كتاب علمي حول نشأة المفاهيم في اللغات بالفرنسية.

- رواية " جبل قاف " 2002.

- دراسة وتحقيق كتاب الشهاب موعظة لأولي الألباب، لأبي أحمد جعفر بن سيدبونة.

- رواية " بحر نون " 2007.

¹ : موقع الويكيبيديا، <https://ar.m.wikipedia.org>

² : المرجع نفسه.

- رواية "بلاد صباد" 2009.
- رواية "الحواميم" 2010.
- رواية "الطواسين" 2011.
- رواية "ابن الخطيب في روضة طه" 2012.
- كتاب جماعي بعنوان "السمع الصوفي" 2012.
- كتاب "الرواية العرفانية في تجربة عبد الإله بن عرفة".
- رواية "جبل قاف" 2013.
- جماليات السرد العرفانية عند الأديب الروائي ابن عرفة 2014.
- "رواية طوق سر المحبة" 2015.
- رواية "الجنيد" 2017¹.

2. تقديم عام للرواية:

أ- عنوان الرواية:

مما لا شك فيه أن العنوان هو عتبة النص والجدير بالقول أن العلاقة التي تجمع بين العنوان و النص، سواء كان نص شعريا أو نثريا هي علاقة تكاملية بحيث يعبر العنوان عن فحوى النص، و فيه تلخيص للفكرة التي يحملها بين طياته، لذلك يمكن أن يكون العنوان وحده ولوجا في النص دون العودة إليه.

¹ : موقع الويكيبيديا، <https://ar.m.wikipedia.org>

لكن الرواية الجديدة اتخذت من العنوان دلالات و رمزيات بحيث لا يمكن فك شيفراته إلا بالعودة إلى فحوى النص و قرائته، وهذا ما نجده في رواية عبد الإله بن عرفة المعنونة "بالحواميم" و عليه «الحواميم من السور السبعة المفتحة بـ "حم"، فالنور الساري من هذه الحروف ينعكس على هذه الكتابة بالنور»¹ إذن "حم" جاءت في صيغة الجمع "الحواميم".

و عليه فإن اختيار هذا العنوان لم يكن بشكل اعتباطي، و هذا يظهر من خلال روايته التي تتكون من سبعة فصول بحيث أطلق على الفصل اسم لواء نسبة إلى لواء الجهاد البحري وقد «جعل هذه الفصول سبعة على عدد السور القرآنية المفتحة بـ "حم"، يدل على ذلك افتتاح جميع هذه الفصول بالحاء و الميم سواء في صيغة حرفين مقطعين "حم"، أو بصيغة فعل "حم"، و كذا ختمها بالآية الأخيرة أو بجزء من الآية الأخيرة في السور القرآنية المقابلة لذلك الفصل. هكذا يختم اللواء الأول باقتباس من سورة غافر، والثاني من سورة فصلت، و الثالث من سورة الشورى، والرابع من سورة الزخرف، و الخامس من سورة الدخان، و السادس من سورة الجاثية، و السابع من سورة الأحقاف، كما أن مدار المادة الحكائية يتمحور حول موضوع الصراع بين الحياة و الموت، ذاك الصراع الذي يشير إليه أيضا ثنائية الحاء و الميم»².

من هنا يتضح لنا أن الروائي المغربي عبد الإله بن عرفة اتكأ في عنونته "الحواميم" على مرجعية دينية قرآنية، كما أن هذا العنوان منفتح على عدة تأويلات كما ورد على لسان الروائي في الإهداء الخاص بروايته فيقول: «إلى أمة الأندلس في الحواميم في صراعها بين الحاء و الميم، حاء الحياة، و ميم الموت»³.

¹ : عبد الإله بن عرفة ، الحواميم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2010، ص7-ص8.

² : محمد التهامي الحراق الحواميم لعبد الإله بن عرفة بين الإبداع و التاريخي، نشر في المساء يوم 2013/11/13 في موقع

إلكتروني <https://www.maghress.com>

³ : عبد الإله بن عرفة ، الحواميم، ص5.

ب- ملخص الرواية:

يسرد لنا الكاتب في هذه الرواية مرحلة مأساوية من تاريخ الإنسانية عامة والإسلامية خاصة، من خلال حديثه عن سقوط غرناطة سنة 1492 آخر المعازل الإسلامية بالأندلس إلى غاية طرد الموريسكيين بين سنوات 1609-1614، و الإخلال بينود المعاهدة المبرمة بين آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله و ملوك إسبانيا الكاثوليك ، وعليه فإن الملكة ايزابلا وزوجها فرناندو تنكرا العهود التي ضمنت حقوق المسلمين في مملكة غرناطة ، و عملا على محاربة الإسلام من خلال طرد المسلمين و إرغامهم على التنصير و مصادرة ممتلكاتهم و محاربة عاداتهم.

لقد عملت السلطات الإسبانية على اجتثاث جذور الإسلام من قلوب المسلمين و قطع كل ما يمت له بصلة من خلال إصدار مجموعة من القرارات و المراسيم كمنع اللغة العربية و منع الحمامات باعتبارها موطن النجاسة بالإضافة إلى تحويل جميع المساجد إلى كنائس .

كما جندت محاكم التفتيش للقيام بحملاتهم الموسومة بكل أنواع الشر و الظلم والإضطهاد، بالإضافة إلى القتل و الحرق و حتى اليهود والبروتستانت لم يسلموا من هذه الحملات الوحشية و الهمجية ضد الإنسانية مستخدمين أبشع صور التعذيب من خلال اختراع آلات رهيبة تفننوا فيها مع مراعاة عدم إراقة الدم.

و أمام هذا التصعيد العدواني ضد هذه الأقلية المضطهدة قرر البعض الهجرة إلى المغرب و شمال إفريقيا ، في حين قرر البعض المقاومة و العيش في جبال البشرات بعيدا عن ذل المسيحية و حتى يتمكنوا من ممارسة شعائرهم الدينية، لأنهم كانوا مضطرين دائما لإظهار الولاء للدين المسيحي خوفا على أنفسهم من بطش محاكم التفتيش التي كانت مهمتها تتمثل أساسا في التأكد من نصرانية المسلمين.

من بين العائلات الموريسكية التي عانت من الاحتلال عائلة الشيخ ابن معن الذي ظل متمسكا بعقيدته و دينه وقرر الجهاد في بلاده حتى لو كلفه ذلك حياته، و كان حريصا على تربية و تعليم حفيده معينو اللغة العربية و أصول الدين و لكنه كان يخشى عليه من التنصير خصوصا أنه لم يتجاوز الثمانية سنوات و لم يتلق تربية عربية إسلامية كافية و موسعة، لذلك قرر إرساله في

سفينة جهادية، ولما خرج الشيخ رفقة حفيده متجهين نحو البحر اعترضت طريقهما كتيبة من الفرسان فأمر الشيخ حفيده بالهرب و الركوب في السفينة بينما ألقى القبض على الشيخ.

إن لحظة الفراق كانت جد صعبة على الشيخ وحفيده و في الوقت نفسه تعتبر خطوة مهمة و إنجاز عظيم بالنسبة للشيخ الذي تمكن من إرسال حفيده إلى مكان آمن ولن يصبح راهبا في الكنيسة.

ولما كان الشيخ في السجن لم يستسلم لقدره الحزين بل ظل مواظبا على صلاته ولم يكن مهتما بمصيره بالرغم من محاولات محاكم التفتيش في إقناعه بالتخلي عن دينه و الاعتراف بجميع التهم الموجهة إليه لكنه أبدى لهم صرامة موقفه وإصراره لذلك قامت محاكم التفتيش بإصدار حكم الإعدام بحقه ثم حرق جثته ومصادرة جميع ممتلكاته.

بعد مرور سنين يصبح معينو شابا قويا يتقن الملاحة وفنون الحرب البرية والبحرية، بالإضافة إلى جمع الغنائم من خلال القرصنة ضد السفن النصرانية، ثم يتعرف على حياة وهي من عائلة موريسكية عريقة و التي كانت ضمن أسرى في سفينة قشتالية، وتنشأ بينهما علاقة حب تنتهي بالزواج.

حين صدور مرسوم قرار الطرد النهائي للموريسكيين أو مايعرف بالتهجير القسري، ضاعف معينو من جولاته في البحار لمدد يد العون و المساعدة لهؤلاء المستضعفين الذين أجبروا على دفع عشرات الريالات الذهبية مقابل تغريبهم و من بين هؤلاء الموريسكيين مصطفى وزوجته حليلة و هما والدا حياة التي أخذها القساوسة منهما ووضعوها في أسرة قشتالية، ولحسن حظهما ينقذهما معينو و يأخذهما معه إلى بيته وهنالك تتعرف الأم حليلة على ابنتها حياة من خلال وشم على ذراعها الأيمن، فاجتمع شمل العائلة و عمت الفرحة و السعادة.

ج-شخصيات الرواية:

تنوعت شخصيات رواية "الحواميم" بين شخصيات رئيسية وشخصيات ثانوية وفي أي حال من الأحوال لا يمكن إلغائها سواء كانت رئيسية أو ثانوية. لأنها تساهم في نمو الأحداث و تطورها عبر المسار السردي وصولاً إلى النهاية ، لذلك تعد الشخصية الروائية: «جوهر العمل الروائي و المقياس الذي تقاس عبره قدرة الروائي على اجتياز عمل في مميز يحظى باستحسان القراء»¹.

ج-أ- الشخصيات الرئيسية:

◀ الشيخ ابن معن:

هو جد معينو، وكان شديد الحرص على توفير أسباب العيش الكريم لعائلته، و لكن بعد سقوط غرناطة وتدهور الأوضاع إلى الأسوأ ، أمر جميع عائلته بالرحيل نحو المغرب و قرر البقاء مع ابنه الذي استشهد في إحدى الهجمات ضد الإسبان، وعمل كذلك على تربية حفيده أصول الإسلام، وألقي عليه القبض وهو يحاول تهريب حفيده في سفينة جهادية، ثم نُج به السجن إلى غاية إصدار قرار إعدامه و حرق جثته ومصادرة جميع ممتلكاته لأن محاكم التفتيش تأكدت من صرامة موقفه و إصراره في عدم التخلي عن دينه.

◀ معينو:

حفيد الشيخ ابن معن ، والذي أخذه رهبان الكنيسة من أجل تعميده. فخشي عليه جدّه من التنصير لذلك قرر جدّه إرساله نحو المغرب و أثناء عملية تهريبه تمكن معينو من ركوب السفينة بمساعدة راسيها وهذا الأخير أحسن إليه و رباه وعلمه الملاحة وفنون الحرب البرية والبحرية.

◀ حياة:

¹ : حسن سالم هندي إسماعيل، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث دراسة في البنية السردية، دار الحامد، الأردن، عمان، ط1، 2014، 49، عن ينظر: سعد عبد العزيز، الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1970، ص2.

فتاة من أصول موريسكية، أخذها القساوسة عندما كانت صغيرة ووضعوها في أسرة قشتالية وهذه الأخيرة أحسنت إليها ووفرت لها كل أسباب الترف و العلم و الحياة، لكنها فضلت الهرب و العيش في بلاد إسلامية بمساعدة رجل موريسكي و لكن لسوء حظها أُسرت في إحدى السفن القشتالية ثم يتعرف عليها معينو عندما يقوم بقرصنة هذه السفينة القشتالية، فيتزوج بها ويستقران في المغرب.

◀ مصطفى وحليمة:

هما والدا حياة وكانت حياتهما جد تعيسة يطبعها الحزن و الأسى لفراق ابنتهما الوحيدة، وكانا دائما يعيشان على ذكرى حياة، بالإضافة إلى الحياة المريرة بسبب الاحتلال و مصادرة جميع أملاكهم، وبعد صدور مرسوم الطرد ينقذهما معينو من خلال جولاته التي كان يقوم بها من أجل نجدة هؤلاء المستضعفين، ثم يأخذهما معينو معه لبيته و بعد مرور أيام تتعرف حليمة على ابنتها حياة من خلال وشم على ذراعها الأيمن.

ج - ب - الشخصيات الثانوية:

◀ ايزابيلا الكاثوليكية:

ملكة قشتالية والتي عملت على خلق كل سياسة من شأنها مضايقة المسلمين، وتجنيد كل الوسائل المتاحة من أجل طردهم ومنعهم من ممارسة عاداتهم و إرغامهم على التنصير.

◀ فرناندو:

ملك أرغون وزوج الملكة ايزابيلا، وكان مساندا لفكرة زوجته التي تقتضي بضرورة تنصير جميع المسلمين، وكان هذا الثنائي المكون من فرناندو وزوجته ايزابيلا ثنائي مكر و خداع، لأنهما بمجرد دخولهما لمملكة غرناطة تنكروا لكل العهود التي تضمن حقوق المسلمين في مملكة غرناطة.

◀ خميس الكاهن:

عينته ايزابيلا من أجل تنصير المسلمين عن طريق إقناعهم بتفوق الدين المسيحي عن الدين الإسلامي، كما اعتمد كذلك على التهديد و الرشوة، ويعتبر أكبر مجرم في حق التراث العلمي الإنساني لأنه أمر بجمع و حرق حوالي مليون مخطوط في مختلف الفنون و العلوم و الصنائع.

◀ كاسبودورو لاريننا:

راهب كاثوليكي من أصول موريسكية أندلسية تعرض لأصناف متعددة من التعذيب في سجون محاكم التفتيش لأنه من أتباع الإصلاحيين الذين هدفهم تطهير الدين المسيحي مثل إنتقادهم لصكوك الغفران التي يمنحها رهبان الكنيسة لأبنائها مهما فعلوا من جرائم.

1. الصورة الجسدية:

تتمظهر تجليات الجسد في الرواية من خلال الشخصيات، لذلك يسعى الروائي لرصد البعد الجسدي للشخصية الروائية، مبرزاً ملامحها: «فالمواصفات الخارجية تتعلق بالمظاهر الخارجية للشخصية (القامة، لون الشعر، العينان، الوجه، العمر، اللباس...»¹، إذن يهتم الكاتب بالبعد الجسدي للشخصية من أجل تصويرها وتقريبها للقارئ، من خلال رسم جميع ملامحها الخارجية منقامة وعمر ولباس وغير ذلك.

تعد الشخصية الروائية من أهم مكونات النص السردي لذلك نجد الكاتب يرصد لنا الملامح الجسدية للشخصيات الموريسكية باعتبارها المحرك الرئيسي للأحداث الروائية.

ومن بين هذه الشخصيات شخصية الشيخ الفقيه ابن معن، فنجده يقول عنه: «ابن معن فقد تقدم به السن وأصبح شيخاً هرمًا»² ويصفه في موضع آخر: «هذا الشيخ صاحب الشيبة المباركة»³، تدل صفة الشيخ التي أوردتها الكاتب على أن صاحبها متقدم في السن، ويمتلك خبرة وثقافة وعلى دراية ومعرفة بأسرار الحياة اكتسبها من خلال معاشته للواقع والمجتمع، والتقدم في السن يتبعه حتماً شيب الرأس وضعف الجسد وعجزه، بحيث لا يقوى هذا الأخير على القيام بأبسط الأشياء إذن الشيب والهرم هما رمزاً للشيوخوخة.

يلجأ الكاتب إلى طريقة التقديم للشخصية المحورية، وهي شخصية معينو حفيد الشيخ ابن معن، من أجل الولوج إلى عالم النص السردي من خلال وصف الملامح الخارجية لها فيقول: «وكان من بين المهاجمين شاب قوي البنية في العقد الثاني من عمره، يرتدي عمامة أنيقة، وسروالا

1 : محمد بوعزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، دار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2010م، ص 40.

2 : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 51.

3 : المصدر نفسه، ص 91.

فضفاضاً، ثم قميصاً أبيضاً وسلهماً قصيراً¹. لم يهتم الكاتب بتحديد الملامح الجسدية لمعينو والتعرض لها بالتفصيل، ولكنه أشار إليه بقوله قوي البنية وهذه الأخيرة من شأنها أن تظهر لنا أنه كان بطلاً ومقاتلاً، يتمتع بالقوة الجسدية واللياقة البدنية.

أما بالنسبة للباس فهو يحيل على أن هذه الشخصية نابعة من أصول عربية إسلامية بحيث: «أن اللباس يعتبر الهوية الخارجية للجسد، ففيه تلخيص للعادات والتقاليد ولل فكر السائد سواء أكان ثوباً أو حلياً نستطيع أن نكتشف الخلفية الفكرية لحامل اللباس من بداوة أو حضارة أو تمرد أو تبعية أو خضوع أو تدين...»². لذلك نجد الكاتب قد أشار للباس الذي يساعد على تحديد الهوية الخارجية للجسد.

ولقد ذكر أيضاً أن شخصية معينو بالرغم من أنه في العقد الثاني من عمره إلا أنه يمثل لنا صورة الشخصية الواعية بالحياة والقادرة على تحمل المسؤولية وهذا بفعل الظروف التي مر بها كما نجد هذه الصورة في الكتابات الإبداعية العربية خاصة التي تصور لنا جانباً من المأساة التي تخلفها الحرب، ومن بينها شخصية مروان في رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني: «مروان ترمز شخصيته إلى المراهق الفلسطيني الذي حمل بسبب النكبة مسؤولية الرجال»³.

كما نجد بعض الملامح الظاهرية للجسد الأثوي في الرواية من خلال وصف الفتاة حياة ذات الأصول الموريسكية على لسان معينو: «عثرت على فتاة وضيئة كالقمر ضمن أسرى السفينة

¹ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 133.

² : جمال بوطيب، الرواية العربية الحديثة المرجع والدلالة بحث في انتروبولوجيا الجسد، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2013، ص 20.

³ : عبد الله حسيني، الباحث روح الله صفري، صورة البطل في أعمال غسان كنفاني الروائية-قراءة في "رجا الشمس" و" ما تبقى لكم" أمودجا-، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الخوارزمي، مجلة مركز الدراسات الكوفة: مجلة فصلية محكمة، العدد 42، 2016، ص 131.

القشتالية»¹، لم يحدد لنا الكاتب التفاصيل الجسدية لحياة التي يبرز من خلالها جمالها ولكنه اكتفى بقوله وضيئة كالقمر فهتين اللفظتين تلخصان كل معايير جمال الأنثى، فتحيلان على أن حياة فتاة جميلة، بيضاء البشرة لها عينان ساحرتان وجسم رشيق وجذاب.. إذن جمال حياة يضاهاي جمال القمر في نوره.

اهتمت الكتابة الروائية العربية برصد مجموعة من الملامح الجسدية التي يظهر من خلالها جمال الأنثى الذي يكون أحيانا خياليا قريبا من الأسطورة، فمثلا في رواية " ملكة العنب " لنجيب الكيلاني نجد الكاتب فيها يصف براعم فيقول: «أنت جميلة جدا يا براعم حتى النساء يصعقن أمام جمالك الفاتن»². ومن خلال ذلك فإن «لفظتي جميلة وفاتنة تنوبان عن التفاصيل الدقيقة، إن مثل هذه الألفاظ تحفز خيال القارئ وتجعله يتخيلها كما يشاء ويبني صورتها بمفرده في مخيلته»³.

لم يركز الروائي على طول المسار السردي في رصد المواصفات الجسدية للشخصيات الموريسكية، بقدر اهتمامه بالسلوكات والانفعالات الصادرة عنها، فمثلا نجده يصور لنا انفعال معينو لحظة ركوبه السفينة: «ووقف الفتى ينظر إلى الشاطئ يغيب عن عينيه وهو يلوح لجدته بيده والدموع تنزل من عينيه في صمت ثم أخذته رعدة وتشنج فانتفض من حزنه ولمع وميض الشرر في عينه، ثم صاح بأعلى صوته: سأعود أقسم أيي سأعود يوما»⁴.

1 : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 139.

2 : محمد الأمين يزيد، أساليب السرد في ملكة العنب لنجيب الكيلاني، مذكرة الماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، قسم اللغة العربية وآدابها، 2015-2016، ص 113، عن: نجيب الكيلاني، ملكة العنب، ط1، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000م، ص 73.

3 : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 55-56.

إن الكاتب في هذه الفقرة بالذات ركز على أعضاء الجسد من خلال الإشارة إلى الوجه وبالخصوص العينين، فبكاء معينو ورفع ليدته وتلويحه بها لجده ما هي إلا حالة تعبيرية عن حزن شديد يختلج في صدره لفراق جده، ثم تتاب جسده رعدة وتشنج، ومن هنا نلتمس قمة انفعاله مما يدفعه للصياح بأعلى صوته واعداد جده بالعودة مستقبلا.

وعليه «تدخل الإشارات الجسدية ضمن حقل لغة الجسد الذي يتمثل في الحركات التي يقوم بها الفرد للتعبير عن حالتهم، من خلال استخدام تعبيرات الوجه أو أيديهم أو نبرات صوته، أو هز الكتف والرأس من أجل التعبير عن عواطفهم اتجاه شيء أو موقف معين»¹.

ونجد الكاتب في موضع آخر من الرواية يترجم نظرات العيون ليجعل منها لغة معبرة وموحية لهذه الوضعية المتأزمة فيقول: «كانت النظرات منزعجة فيها بحر من القهر وسراب من الأمل، تلفتت الوجوه لبعضها تستفهم وتستنطق عن سر هذا النداء المباعث المبكر، كانت العيون ترسل رسائل متضاربة»² قد تكون عادة لغة الجسد أبلغ في التعبير من الكلام من خلال العيون بحيث: «قد تكون نظرة ما أكثر تعبيراً، وأصدق دلالة من خطبة طويلة تلقى، أو كلام كثير يقال»³.

لقد أبدع الروائي في استحضار الجسد واستثماره بما يخدم أحداثه السردية فنجده يصور لنا لحظات تعذيب جسد كاسيودورو دولارينا فيقول: «حاول أن يستغيث لكنهم وضعوا في فمه قطعة خشبية تشبه الإجازة لها مفتاح ثم بدأ أحد الجلادين يدير ذلك المفتاح فكان حجمها يتعاضم ولا يستطيع الضحية أن يطلق صوتاً، لأن القطعة ملأت كل فمه الذي كاد أن ينفجر من شدة

¹ : ديهية توابنية، شانز عروي، خطاب الجسد في رواية الرعشة، مذكرة الماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2014-2015، ص 23.

² : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 198.

³ : عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردى معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1995، ص 285.

الضغط، فقد صارت أوداجه منتفخة تكاد تنفجر، أما حدوده التي كانت متجعدة فقد صارت بفعل الشد ملساء دون تجاعيد»¹.

من خلال هذا المقطع السردي نستطيع أن نتخيل هذا الجسد المستضعف وهو بين جلاديه لأن الكاتب فصل ودقق في وصف المظهر الخارجي أي الجسدي للضحية.

ويضيف قائلاً: «لقد تغيرت ملامحه بشكل كبير ماذا صنعوا به يا ترى حتى تغيرت سحنته؟ لقد زاد التعذيب في عمره بدا هرماً، وجه ممتقع، وحدود متدلّية كأنها شكوة لبن مهترئة، صفرة قاتلة، وحمرة خانقة، وغبرة داكنة لم يعد للرجل لون مميز»². إن إظهار معالم الوجه بكل قسماته مثل الحدود المتدلّية كأنها شكوة لبن مهترئة، وتلك الحمرة التي تدلّ على اختناقه، وصفرة الوجه القاتلة كل ذلك يدل على شدة الألم وقسوته التي تعرض لها جسد كاسيودورو دولارينا.

«إن الوشم يعد ميثولوجية الماضي، وكل امرأة موشمة تحمل من خلال الوشم رسالة، فالوشم رمز الهوية»³، وفي الرواية ذكر للوشم من خلال وصف جسد حياة عندما كانت في الحمام مع حلّيمة، كما أن لها شامة أسفل السرة إلى جهة اليمين فيقول الكاتب: «بدأت حلّيمة تفرك ظهر حياة، ثم انتقلت إلى ذراعها الأيمن، فلفت انتباهها فجأة رسم غريب باهت جدّاً»⁴.

الرسم الذي كان على ذراع حياة جعل حلّيمة تستفسر عنه لعلها تكون ابنتها التي أخذها منها القساوسة، فترد حياة على استفسار حلّيمة قائلة: «كلّ ما أذكر أنني لما كنت صغيرة أعطتني أمي بعض الحلوى، ثم مسكت ذراعي ورسمت خطوطاً بالفحم الأسود ثم وخزني بآبرة في موضع

1 : عبد الإله بن عرفة، حواميم، ص 73.

2 : المصدر نفسه، ص 74.

3 : صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بيروت، ط2، 2009، ص 185.

4 : عبد الإله بن عرفة، حواميم، ص 229.

الخطوط»¹، وتضيف قائلة: «أما عن الوشم، فقد ذكر لي زوجي محمد أنه يمثل كلمة حياة بالعربية»².

ولكي تتأكد حليلة من أن حياة ابتتها تضيف قائلة: «هل لديك شامة أسفل السرة إلى جهة اليمين؟»³.

إن الشامة والوشم اللتان كانتا على جسد حياة عبارة عن بطاقة هوية خاصة بها، واستطاعت الأم التعرف على ابتتها من خلالهما ومن هنا نلاحظ أن الكاتب قد أبدع في استثمار الجسد بما يخدم أحداثه السردية.

كل إبداع روائي يستلزم حضور شخصيات سردية، لذلك نجد الكاتب يوليها اهتماما خاصا من حيث إبراز قدراتها المادية وخاصة القوة الجسدية، وفي الرواية وصف للمبارزة التي دارت بين الشاب معينو والفارس الإسباني: «أخذ الشاب يطوف بالفارس الذي يقاتله ويسدد له ضربات من الخلف، أما الفارس الذي كانت حركته ثقيلة جراء الحديد الذي يلبسه فكان يسعى للمواجهة المباشرة مع الشاب الجريء، حاول الفارس أن يهجم على خصمه ورفع رماحيه ليستعين به على تسديد ضربة قاضية للفارس، لكن هذا الأخير تفادى الرمية واستغل رفع الفارس ليده اليمنى وانكشف ابطه الأيسر فسدد ضربة قاضية للفارس سقط إثرها مضرّجا بدمائه الفاترة»⁴.

إن الطريقة التي وصف بها الكاتب شخصية معينو وهو يقاتل الفارس تحدد المهارات القتالية التي يتمتع بها من خفة ورشاقة وقوة بدنية مما جعله يطيح بخصمه ويقضي عليه.

¹ : عبد الإله بن عرفة، حواميم، 229-230.

² : المصدر نفسه، 230.

³ : المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ : المصدر نفسه، ص 134.

لقد استخدم الكاتب لفظة الجسد وذكر أعضائه كالرأس واليد... في أكثر من موضع من الرواية ليرز لنا مدى انتهاك حرمة الجسد وكرامته فيقول: «جعلوا من جسده اسفنجة تمتص الماء»¹. «وجسمه ملتهب بالحروق التي أحدثتها الأسيخ الملتهبة التي كان الجلادون يشوون بها ضحاياهم وينتشون بغرزها وإخراجها بسرعة فائقة ثم إعادة غرزها مرة أخرى كما لو أن جسم ضحاياهم وسادة من قطن يعبثون بها»².

«فارتفعت النيران تأكل الجسد المتدلي»³.

«كان يوما رهيبا سالت فيه الدماء وتقطعت فيه الأوصال وارتفعت ألسنة اللهب تأكل الأجساد كما لو كانت حطبا»⁴.

«... ثم التقط يده بيسراه وأخذ ينظر إليها ويكي والألم يعصره عصرا»⁵.

نلاحظ من خلال هذه الجزئيات أن تكرار لفظة الجسد تحيل إلى حضور الشخصية الروائية، وهذه المفردات (جسم، يد، رأس...) تحيل إلى مختلف التظاهرات الجسدية في الرواية.

لقد قدم لنا الكاتب الصورة الجسدية للشخصيات الموريسكية وفق قسمين، فالقسم الأول من خلال تصويره للملامح الخارجية لها، والتي كانت تتمتع بالخفة والقوة واللياقة البدنية، بالإضافة إلى تقديم صورة الجمال من خلال وصف الجسد الأنثوي، أما بالنسبة للقسم الثاني للصورة الجسدية للشخصيات فنجد الكاتب قد ركز على وصف السلوكات والانفعالات الصادرة عنها

1 : عبد الإله بن عرفة، حواميم، ص 79.

2 : المصدر نفسه، ص 87.

3 : المصدر نفسه، ص 129.

4 : المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5 : المصدر نفسه، ص 219.

من خلال جعل لغة للجسد كترجمة لغة العيون، بالإضافة إلى تركيزه في وصفه الدقيق والمفصل للموريسكيين وهم يتعرضون للتعذيب والقتل وتشويه لأجسادهم من قبل النصارى الإسبان.

2. الصورة النفسية:

بما أن هذه الرواية تحكي مرحلة مأساوية من تاريخ الإنسانية، سنجد حتما الروائي فيها يركز على الجانب النفسي للشخصيات التي تعرضت لأبشع وأقصى أنواع الظلم والاضطهاد والتعذيب وشعورها بالضعف والهوان، مبرزا لنا مختلف الأزمات النفسية أو بالأحرى الصراع النفسي ومدى تأثيره في نفسية الموريسكي الذي كان يتخبط في دوامة القهر والحزن والتعذيب والتقتيل.

«وقد حاولت الرواية الجديدة عن طريق الروائي التغلغل من الخارج المغلق إلى الداخل المفتوح، إلى الذات الفردية إلى وعيها الباطن في تشابك علاقاتها ونزوعاتها وأبعادها محاولة رسم ملامحها الداخلية... بماذا تفكر... وما هي مشاعرها وتطلعاتها»¹.

وبما أن رواية الحواميم لعبد الإله بن عرفة تدخل ضمن الرواية الجديدة، فنحن هنا يمكننا القول بأن هذا الروائي المغربي تمكن في جعلنا نلتمس جراح الإنسان المتأزم بفعل الجرائم الشنيعة التي تعرض لها، وذلك من خلال رسم جميع ملامحه الداخلية.

إن أول صورة نفسية افتتح بها الكاتب روايته هي نظرة الموريسكيين للقشتاليين: «كان الغرناطيون المسلمون ينظرون نظرة احتقار إلى القشتاليين والكنيسة حتى وهم تحت الاحتلال»². فالاحتقار كان نتيجة الشعور بالضعف والعجز بسبب المعاملات السيئة وكثرة التحرشات

¹ : هدى جمال محمد، أزمة المثقف في الرواية الأردنية، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013، ص

101.

² : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 19.

والمضايقات التي تعرض لها الموريسكيون، وعدم الالتزام بنود المعاهدة التي ضمنت حقوق المسلمين في مملكة غرناطة.

صور لنا الكاتب المعاناة النفسية للموريسكي وصعوبة تأقلمه مع الوضع الجديد: «لكن أعظم شيء كان يقض نفسية الموريسكيين هو الضغط النفسي الناتج عن الاحتلال، وهذه الحالة لم يعرفوها من قبل ولا عرفها آباؤهم ولا أجدادهم»¹.

نلتمس من هذه الجزئية أن للاحتلال وقع كبير وتأثير في نفسية الموريسكي، مما جعله يعيش في ضغط نفسي بسبب الظلم والاضطهاد، وإكراهه على أمور كثيرة لم يعهدها من قبل، كمنع اللغة العربية ومنع الطهارة فهم يعتبرون الحمام موطننا للنجاسة .

ونجد الكاتب في موضع آخر من الرواية يرصد لنا الحالة النفسية للموريسكي: «كما كان لإحساسهم الجديد بالغرابة عن أرض الإسلام والمسلمين والانقطاع عن بلاد المغرب أثر كبير على نفسياتهم»². يعد الإحساس بالغرابة معاناة مؤلمة في حد ذاتها، خصوصا أن هذه الغربة تكون في الوطن، ولها الأثر الكبير في إحداث أزمات نفسية عميقة لدى الموريسكي من خلال تهميشه وطمس هويته العربية الإسلامية بالإضافة إلى الانقطاع عن بلاد المغرب.

كان القشتاليون على علم أن الموريسكيين شديدا الحرس على الإسلام وتطبيق أحكامه، ومن هنا عملوا على بث الرعب في نفوسهم وتضييق الخناق عليهم مما جعل الموريسكيون يمارسون شعائرهم خفية فيقول الكاتب في هذا الصدد: «أخذ التنصير أبعادا متطورة وقسرية فحولت جميع المساجد إلى كنائس، وانقطع الأذان ورفع الصليب في كل مكان...»³.

¹ : المصدر نفسه، ص 20.

² : المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ : عبد الإله بن عرفة، حواميم، ص 34.

«كانوا يظهرون المسيحية، ويخفون الإسلام...»¹.

«... استمروا في أداء فرائضهم بشكل سري...»².

إن الخوف والرعب الذي بثه هؤلاء المعتصمين في نفوس المورسكيين كان سببا في إخفاء الدين الإسلامي، والتظاهر بالولاء للدين المسيحي.

عرض الروائي صورا كثيرة ترصد الحالة الشعورية للموريسكيين وهم تحت وطأة الاحتلال المرير من بينها ماجاء على لسان الإمام الخطيب: «...أورثت فينا الحزن والأسف والوجد والتعب والكرب والقلق والهلم والنكد، وغيرها من التأثيرات النفسية التي تُذهل العقل وتشغل الفكر وتعمر القلب وتتعب النفس ويضيق عن حملها الصدر وتذهب النوم وتورث اليأس وتطرد الأنس...»³ نلتمس في هذا المقطع السردى مختلف الأزمات النفسية كالقلق والكرب والهلم وتأثيرها السلبي من خلال تعب النفس وانشغال الفكر وذهاب النوم والتي من شأنها أن تخلق نوعا من الإحباط واليأس والتذمر على الوضع الكارثي الذي لا يطاق.

تفيض الرواية بكل معاني الحزن والأسى، فنجد الروائي على طول المسار السردى مركزا على رصد المعاناة النفسية للموريسكيين فيقول: «كانت أعينهم حزينة يملؤها الفضول وتنطق بالأسى، كانوا يتوقعون مزيدا من الشرور»⁴. ويضيف قائلا: «الحزن يعصر النفوس عصرا بليغا، والكآبة

1 : المصدر نفسه ، ص 34.

2 : المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 : المصدر نفسه، ص 41.

4 : المصدر نفسه، ص 198.

تسيل على الأرض في الخطى الهائمة»¹. ويقول أيضا: «عمّت الفوضى وأصاب الناس الذعر والفرع»².

من خلال هذه النصوص الموثقة في ثنايا الرواية، نلتبس البعد المأساوي المتأزم بفعل تعرض الموريسكي للإهانة والذل والعذاب، وكل هذه المعاملات الأخلاقية كفيلة بأن تجعله يعيش قلقا وضائعا ومتحيرا من مصيره المجهول، حينما أدرك وتيقن من تجرد المحتل لأرضه من كل القيم الإنسانية.

تعد شخصية الشيخ ابن معن من بين العائلات الموريسكية المضطهدة، له حفيد اسمه معينو، والذي أخذه رهبان الكنيسة من أجل تعميده، حيث كان يتعلم اللغة القشتالية ودين النصرى، ومن هنا محاولة جعل بذرة عربية مسلمة أندلسية تنمو في أرجاء الكنيسة كفيلة بأن تخلق لدى الموريسكي حالة نفسية مضطربة، ومعذبة تحاول دائما البحث عن حل لهذه المأساة: «لذا عقد العزم على الرحيل به إلى المغرب خوفا من أن يضيع منه نهائيا، ويصبح واحدا من رجال دينهم لأن أحد الكهنة ألزمه بالخدمة المستمرة في الكنيسة إلى جانب الأب الراعي»³.

ومن هنا نستشعر هاجس الخوف الشديد والقلق المستمر حينما كان حفيده يشغل تفكيره وباله في أن يصبح راهبا في الكنيسة، خصوصا وأن حفيده لم يتلق بعد تربية إسلامية كافية، فحين ألقى القبض على الشيخ ابن معن لم يكن مهتما بمصيره: «كان ابن معن غير آبه بما ينتظره، فقد أدى ما عليه وكانت ثقته بالله كبيرة، ولم تغادر الابتسامة فاه رغم الشدائد التي مر بها والأهوال التي لحقت به وبأهل الأندلس، لكن هذه الابتسامة كانت حزينة للغاية، إنها أشبه بضحكة ممزوجة

¹ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم ، ص 204.

² : المصدر نفسه، ص 205.

³ : المصدر نفسه ، ص 54.

بالتمرد والحسرة والحزن والأمل والمقاومة والإيمان. لم يستسلم لقدره الحزين بل نظم حياته داخل السجن وبقي مواضبا على صلواته لا يفرط فيها»¹.

التمرد، الحسرة، الحزن، الأمل، المقاومة إنها سلسلة من الأحاسيس والمشاعر المتشابكة والمتناقضة تتاب نفسية الشيخ ابن معن، كما نستشعر يقينه بالله تعالى وأن سبيل خلاصه من هذه المحنة والتخلص من الشعور بالوحدة داخل السجن مرهون بالإيمان والمقاومة: «كانت نبرة الغضب والانتقام تجاور نبرة الرضا والتسليم في خواطر ابن معن المتشاكسة لكنه كان مصمما على المقاومة انتصارا لدينه الذي لم يدعه يوما...»². هذه الصورة تعكس مختلف التحولات والتناقضات النفسية وعدم رضوخ الشيخ ابن معن بل إصراره على تنفيذ مشروعه ألا وهو المقاومة الروحية.

لقد اتخذ الروائي من شخصية ابن معن رمزا للشجاعة والنضال والتضحية من أجل الدفاع عن هويته العربية الإسلامية، متحديا محاكم التفتيش التي حاولت إقناعه بشتى الطرق بالعدول والتخلي عن أفكاره ومعتقداته، لكن العزيمة والإصرار كانا يطبعان شخصية ابن معن: «أنا عربي، أنا مسلم، وسأظل عربيا مسلما، سأدوي بها حتى تبقى تفرع آذانكم وتصك أصماخكم، وتزلزل قلوبكم»³.

تعبير صارخ عن مدى تمسك الشيخ ابن معن بأصوله، ومن هنا يظهر تمرد ورفضه للاستسلام مخاطبا جلاديه: «مرحى بالموت، مرحى بالقتل، خذوا جسدي لكنكم لن تأخذوا روحي»⁴، إنها لحظة الدفاع المستميت وقمة الشهامة والصمود بكل عزة.

1 : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 91.

2 : المصدر نفسه، ص 112.

3 : المصدر نفسه، 119.

4 : المصدر نفسه، ص 127.

عرض لنا الروائي كل أنواع القمع، ومختلف ألوان التعذيب التي أبدعت فيها محاكم التفتيش، بل تفننت في اختراع آلات رهيبة من شأنها التلذذ بتعذيب وإهانة هؤلاء المستضعفين، مراعين مبدأ عدم إراقة الدم.

ومن بين هذه الآلات المخلعة كما جاء وصف وظيفتها في السياق الروائي: «لأن أطراف المعذب تنخلع عن مفاصلها»، وابتكار آلة الإخراس كما ورد على لسان كاسيودورو لارينا: «أما فمي فكان مكمما بالإجاصة التي تمنع الصراخ»² توضع هذه الآلة اللعينة في فم الضحية حتى لا يستطيع الصراخ من شدة الألم الذي يسري في جسده وحتى يزيد العذاب فوق العذاب، والغرض الأساسي من ابتكار آلة الإخراس هو تمكن الجلادين من النوم لأن صراخ ضحاياهم وهم تحت التعذيب يسبب لهم الإزعاج، إنه ظلم غريب وقمع ووحشية في حق الموريسكي، وشعوره بالإهانة والذل لأن كرامته سحقها من هم دونه حضارة ومدينة.

حتى النساء لم تسلمن من وحشية هذا المحتل فكانت تلقى أقصى العقوبات مثلها مثل الرجل تماما، ولم تأخذهم بهن شفقة ولا رحمة، وتتجسد هذه الصورة حينما وصف لنا الكاتب لحظات العبث بجسد امرأة أندلسية مخاطبة جلاديهما: «لعلكم قد ملكتم جسدي تدنّسوه بأيديكم القدرة، لكنكم لم تدنّسوا روحي ولن تصلوا إلى تلويث كرامتي، أنا امرأة عربية مسلمة، وسأظل كذلك وسأموت شهيدة. لا إله إلا الله محمد رسول الله»³.

بالرغم من أن عمال محاكم التفتيش عبثوا بجسدها، وكانت على علم أنها ستلقى عذابا شديدا، لكنها واجهت مصيرها بكل شجاعة وصمود، متحدية جلاديهما بأنها لن تتخلى عن

¹ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 78.

² : المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ : المصدر نفسه، ص 81.

دينها وأصلها مهما عرضوها للذل والإهانة والعذاب، وعليه فالروائي أراد أن يرصد لنا أنموذج المرأة القوية التي لا تعرف معنى الخوف مهما كانت النتائج وخيمة.

إذن نستطيع القول أن الكاتب من خلال عرضه لهذا الكم الكبير من الأحداث الروائية، تتضح لنا الملامح الداخلية للشخصيات بحيث نجد نفسية الموريسكي نفسية كثيفة وفاقدة للأمل وأهم ما يميزها الحزن الشديد والأسى بفعل التصعيد العدواني والانحطاط إلى مستوى الوحشية والهمجية، وتتمظهر هذه الصورة من خلال حليلة وزوجها مصطفى اللذان عانا من الأمرين: الأول حزن لفقدان ابنتهما الوحيدة حياة، والثاني حزن على الوضع المأساوي بكل ما يحمله من ظلم واضطهاد ووحشية «مرّ نسيم عليل على امرأة حزينه كانت تكدّ في عملها. شعرت بحزن عميق على فراق ابنتها»¹.

الفراق خلف جرحا نفسيا عميقا لحليمة لأنها لم تستطع ولو لوهلة أن تنسى فلذة كبدها، فلا الزمان ولا الأهوال الصعبة التي مرت بهما كانتا كفيلتين بمحو ذكرى حياة من فكرها وخاطرها. أما صدمة الفراق بالنسبة للزوج مصطفى كانت أشد وقعا وأعظم تأثيرا من الأم: «كان غارقا في تأملاته، لا يتكلم ولا يتحرك إلا ليعود إلى نافذته كأنه يعاين شيئا قادمًا، لا يدري ما هو، قريب غائب أو خبر مُفرح أو مُترح، دخلت عليه زوجته وقبلت جبينه، فابتسم إلى ناحيتها ثم رأى عينيها الذابلتين بالحزن ووجهها الممتقع، فاستفهما بعينه وحاله. كانت حليلة قد اعتادت على صمت زوجها منذ خطفت منهما ابنتهما الوحيدة. فكانت تفهم إيماءاته فتترجمها صيغا كلامية ثم تجيب عنها»².

¹ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 193.

² : المصدر نفسه، ص 194-195.

إذن فقدان مصطفى حياة أثر على نفسيته بحيث أصبح منعزلا وانطوائيا غارقا في تأملاته، لدرجة أنه فضل الصمت وعدم الحديث تعبيرا عن حزنه الشديد لفقدان حياة.

أشار الروائي أنه أمام هول هذه المأساة والجرائم البشعة، أصبحت نفسية الموريسكي مطبوعة بالانتقام، وهذا ما جاء على لسان معينيو: «نحن ضحايا وحشية هذا الزمان القشالي. وقد أقسمت أن أنتقم منهم». إنها صورة تعكس مدى انسلاخ وتجرد الموريسكي من مشاعر الرحمة والرأفة آنجاه عدوه.

كما عرض لنا الكاتب صورة أخرى من خلال الفتاة حياة التي كانت لها نظرة مغايرة تماما للقشتاليين، فهي تمقت فكرة الانتقام، وفضلت الهرب نحو المغرب: «أنا لا أقر بالانتقام، وإنما أسعى لإحقاق الحق والعدل. والأسرة القشتالية التي تربيت فيها كانت تُحسِّنُ إلي كثيرا، ولم تُقصِّر أبدا في تربيتي وتعليمي ومنحي كل أسباب الترف والعلم والحياة»².

تعكس لنا هذه الصورة أن حياة بالرغم مما عانتها من حزن لفراق أهلها إلا أنها لم تنسى الحنان والحب اللذان منحتهم إياها الأسرة القشتالية بالإضافة إلى توفير كل أسباب العيش الكريم لذلك تسعى لإحقاق الحق والعدل، إنها امرأة تميل إلى الاستقرار النفسي الخالي من كل شوائب الشر والحقد والانتقام.

تدل الصورة التي رصدها الروائي من خلال إبراز الأزمات النفسية ومدى تأثيرها السلبي على انعدام الأخلاق وضمحلالات الإنسانية، وما هي إلى امتداد لبشاعة المستعمر أو المستذمر القابع في مستنقعات الشر والطغيان وهذا ما نجده في دول المغرب العربي حينما احتلتها فرنسا ومارست عليها كل أنواع الظلم والاضطهاد حيث: «أخضع الفرنسيون شعوب المغرب العربي، سلبوا

¹ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 153.

² : المصدر نفسه، ص 153-154.

الأراضي، واستولوا على الحياة الاقتصادية كلها وتحكموا في الإرادة، وأفسدوا الحياة الروحية، واستبدلوا اللغة العربية بالفرنسية حتى وصلت شعوب المغرب العربي إلى حالة سيئة، ولقد ثار المغاربة عدّة مرات وفشلت ثورتهم وقاوموا المحتل بوسائل شتى ولم يخرج. لقد نجحت عملية الاستيطان وتعددت القوانين المقيدة للمغربي فانطوى المغاربة على أنفسهم وعم اليأس نتيجة التحكم الشديد الذي فرض، وصار المغربي لا يبحث إلا عن لقمة العيش»¹.

لقد استطاع الروائي فعلا نقل المشاهد المرعبة والمفزعة التي تظهر من خلالها الملامح الداخلية للموريسكيين، والتي تتمثل أساسا في معاناة نفسية مؤلمة داخل مجتمع ينكرهم ويقسو عليهم، وأمام هذا التهميش كان الموريسكي يتميز بالشجاعة والتضحية، ولكن الصورة النفسية الغالبة هي صورة الحزن والقهر، كما استطاع الروائي أن يثير إحساس المتلقي بالتعاطف مع الموريسكيين من خلال عبارات الرثاء المتناثرة في ثنايا الرواية.

3. الصورة الاجتماعية:

تحدد الصورة الاجتماعية في النص الروائي من خلال تطرق الكاتب إلى القيم الاجتماعية التي تبنتها الشخصيات الموريسكية، والتي تتمثل أساسا في التسامح والمعاملات الإنسانية والتعايش مع غيرهم على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم دون صراعات أو نزاعات، لذلك حققوا أعظم الإنجازات ووصلوا إلى مراتب العلم والحضارة وال عمران.

ولا تزال هذه المنشآت شامخة إلى اليوم شاهدة على حضارة أسسوها هم وأجدادهم والتي دامت أكثر من ثمانية قرون من العطاء في كل مناحي الحياة وعليه: «فإن تنظيم المجتمع حياته وحركته، بل فوضاه وخموده وركوده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع، فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى، فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى

¹ : عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2013، ص 36-37.

تعدل في نفس الاتجاه.. إن الأفكار تكون في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أن مختلف مراحل تطوره هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري، فإذا ما كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على ما يسمى بالنهضة فإن معنى هذا أن المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار، وإن هذا النظام يتيح لكل مشكلة من مشاكله الحيوية حلا مناسباً¹.

وعليه فتطور المجتمع وازدهاره مرهون بالأفكار المنتشرة داخله، فإذا كانت هذه الأفكار المتبناة ذات توجه إيجابي يخدم مصالح المجتمع كالتسامح والمعاملات الإنسانية والتكافل الاجتماعي، حتما فإنها ستضمن الأمن الاجتماعي والاستقرار، بل تمكن المجتمع من مواكبة كل ما هو جديد وعصري، وإذا كانت هذه الأفكار ذات توجه سلبي كالفساد والرشوة والاختلاس فإنها تعرقل النمو الاجتماعي لذلك فإن: «أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين: فهي إما أن تؤثر كعوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك كعوامل ممرضة، بحيث تجعل النمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا»².

نستنتج أن أهمية الأفكار المنتشرة في المجتمع يكمن دورها إما كمؤثر إيجابي للنهوض به، أو كمؤثر سلبي من شأنه أن يصعب عملية الارتقاء به.

لكل إنسان الحق في الحياة مهما كانت جنسيته أو لونه أو دينه وأن ينعم بنعمة الأمن والأمان على نفسه في بلاده أو خارج بلاده، لأن تقدم الأمم وتطورها مرهون بالتقيد والالتزام بالقيم الاجتماعية والمبادئ الأخلاقية التي تضمن التعايش السلمي داخل المجتمع، ومبدأ التعايش السلمي وقبول الآخر من شأنه أن يدفع بعجلة العلم نحو التطور وبلوغ أرقى مراتب الازدهار الحضاري والفكري.

¹ : مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، 1979، ص 11-12.

² : المرجع نفسه، ص 12.

وعلى أساس هذا النهج الاجتماعي سار عليه مسلموا الأندلس، وحققوا إنجازات لم يسبق لها مثيل من قبلهم سواء على الصعيد الفكري أو الحضاري كما ورد في سياق الرواية على لسان الشيخ ابن معن: «لا بد أن نبذل المال والأنفس في سبيل هذه البلاد التي استطعنا أن نلقن العالم من خلالها درسا في التسامح والمدنية والإنسانية، كنا نعيش جميعا مع بعض، يهود أو مسيحيين ومسلمين... إن البشرية ولدت هنا على أرضنا، البشرية التي تفسح المجال أمام كل أحد لم نقم حدودا وهمية بين بني الإنسان، طبعا لكل واحد الحق في أن يعيش حسب ما اختاره لنفسه ولكن في نطاق قبول الآخرين وطرائق عيشتهم. هذه ميزتنا وهذا ما قدمناه للإنسانية»¹.

يمكن أن نقول أن الكاتب من خلال هذا المقطع السردي أراد أن يبين لنا أن الموريسكي قدم أفضل صورة للتعايش مع الآخر داخل مجتمع واحد سواء مع اليهود أو المسيح ومن هنا يظهر انفتاحه على الآخر لأنه إنسان مثله مثل غيره من البشر وله الحق في العيش حياة كريمة دون إكراهه على ترك دينه أو الإساءة إليه. إذن العلاقات الاجتماعية كانت مبنية على أساس التسامح وعليه: «كان المجتمع العربي أول مجتمع ينظم للأقليات الدينية حقوقهم بقوانين استمدت من نصوص الدين وقد أقامت الأقليات الدينية في المجتمع العربي متمتعة بحرياتها الدينية، ومارست حياتها بما يتفق مع تعاليمها... وكان هذا التسامح ميزة للمجتمع العربي سمحت له بالتفاعل مع اتباع تلك الديانات وعلمت العرب كيف يستطيعون التعايش مع الغير مهما اختلفت العقيدة الدينية»².

تفرد المجتمع العربي المسلم بخاصية التسامح مع غير المسلمين، مما جعله يتفاعل معهم ويحترمهم وحرص كذلك في التعامل والتعايش معهم وفق ما ورد في القرآن الكريم الذي نهى عن التعصب

¹ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 28-29.

² : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور عبد السلام كفاي والدكتور محمد محمود الصياد والدكتور عاطف وصفي، المجتمع العربي، دار النهضة، بيروت، 1970، ص 252-253.

والتميز العنصري ، وتمتعت الأقليات الدينية في المجتمع العربي بممارسة شعائرهم الدينية ولهم كل الحق في حرية المعتقد.

يظهر من السياق الروائي أن الموريسكيين كانوا من الطبقة الاجتماعية الغنية جدا، وهذا راجع لتمكنهم من إتقان مختلف الصناعات بالإضافة إلى الزراعة والصناعة وتظهر هذه الصورة في الرواية من خلال شخصية ابن معن وعائلته بحيث: «كان هؤلاء يعيشون من الزراعة والتجارة»¹ وكان الشيخ ابن معن «حريصا على ضمان أسباب عيش أسرته الثرية»² وبعد سقوط غرناطة أمر الشيخ ابن معن عائلته بالرحيل نحو المغرب: «خذوا ما استطعتم حملة من الكتب النفسية النادرة والذهب والفضة لتستعينوا بها على بناء حياة جديدة في المغرب»³ كما «باع ابن معن كثيرا من الأراضي التي كان يملكها وأخذ ثمنها من النبلاء القشتاليين الجدد ثم حث أبناءه على الرحيل بأقصى سرعة»⁴. إن بيع الشيخ ابن معن للأراضي التي كان يملكها يدل على أنه من أسرة ثرية جدا بحيث كانتا الزراعة والتجارة هما منبع قوته ومصدرا ترفه.

وما ابن معن وعائلته إلى نموذج من العائلات الموريسكية الثرية التي ساهمت في اقتصاد بلادها وجعلها تحتل الصدارة بين الأمم في شتى المجالات والجدير بالقول: «أن النشاط الزراعي في الأندلس لم يقتصر على تحسين الإنتاج من الزراعات المحلية. بل حرص المسلمون في الأندلس على توفير كل أسباب الارتقاء بالزراعة فعمدوا إلى إرسال البعثات من الخبراء في النباتات إلى أخصب

1 : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 20.

2 : المصدر نفسه، ص 21.

3 : المصدر نفسه، ص 29.

4 : المصدر نفسه، ص 29-30.

أقاليم الشرق كمصر والعراق والهندستان لجمع بذور النباتات وانتقاء الأنواع النافعة لإجراء التجارب عليها في مزارع خاصة بذلك»¹.

إنشاء مزارع خاصة لإجراء التجارب، وانتقاء البذور من قبل مختصين من خلال البعثات إلى مختلف بقاع العالم يدل على مدى ارتقاء المسلمين الأندلسيين في مجال الزراعة.

ويمكن القول أن الروائي أشار إلى أن الموريسكي كان ينتمي للطبقة الغنية ليبين لنا الهدف الحقيقي للكنيسة وراء حملاتها الموسومة بكل أنواع الشر: «ولم يكن الهدف دينيا بالأساس بل اقتصاديا لأن البلاط والكنيسة اغتنوا بأموال الموريسكيين»².

الاغتناء بأموال الموريسكيين صورة تعكس مدى غناهم وترفهم، لذلك كانت الكنيسة تصادر ممتلكاتهم بتهمة الكفر والإلحاد وهذا ما حصل مع الشيخ ابن معن عندما أصدر في حقه الإعدام ومصادرة جميع ممتلكاته: «مرت شهور وابن معن في سجنه، وكانت العادة في محاكم التفتيش أن تطول بلا نهاية حتى استخلاص جميع الممتلكات التي تصادر إلى الملك والكنيسة لقد اغتنى الملوك والكهنة ورجال الدين من هذه المحاكمات بشكل فاحش»³. لذلك: «كانت الكنيسة أكبر ملاك للأراضي الزراعية في اسبانيا كلها. كانت أراض سلبت من أصحابها المسلمين»⁴.

إن السياسة التي انتهجها الكنيسة عندما كانت تصادر أملاك الموريسكيين الهدف من وراءها جمع أموال وثروات على حساب المسلمين، لأنهم كانوا يمثلون النموذج الأعلى في الحياة الاجتماعية بحيث بلغوا قمة الثراء والترف.

¹ : محمد عادل عبد العزيز، الجذور الأندلسية في الثقافة المغربية، دار غريب، القاهرة، 2006، ص 169، عن:

Scott :Histort , pp589- 600

² : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 50.

³ : المصدر نفسه، ص 103.

⁴ : المصدر نفسه، ص 203.

كما عرض الروائي صوراً مختلفة يبرز من خلالها مدى تحضر الحياة الاجتماعية الأندلسية وتميزها: «وجاء المسلمون فنشروا العلم والأدب والحضارة أناروا الطرقات ليلاً ورصّصوا الشوارع والأزقة واستحدثوا بريداً عصرياً، ونظّموا جميع مرافق الحياة ووصلت شبكة الماء المعجزة إلى كل زقاق وبيت وأنشأوا المطاحن والحمامات حتى صار لكل حي مسجده وحمامه وفرنه، فالنظافة في كل مكان والبيوت مطوية بالجير الأبيض، المتناغم مع لون الطين على القصور والقلاع والأسوار»¹ لقد أسس الموريسكيون حضارة عريقة تزخر بكل العلوم كالأدب، وكان لهم السبق في إنارة الطرقات ليلاً والاهتمام بالنظافة وطلاء البيوت حتى تكتسي حلة جميلة وبهية لأن المدينة هي واجهة المجتمع، ومرآة عاكسة لقاطنيها الذين أولوا اهتماماً وحرصاً شديداً على نظافتها، كما مس التنظيم جميع مرافق الحياة كوصل شبكة الماء إلى كل زقاق وبيت وإنشاء الحمامات إنها أرقى صورة تدل على التمدن والحضارة.

لقد كان الموريسكيون في قمة الدهاء العقلي وهذا يعكس الجانب الثقافي لديهم ذو مرجعية دينية، وكانوا عارفين بجميع أصول الفقه والدين ولم يتغافلوا في حرصهم الشديد على الإسلام وتطبيق أحكامه، بما في ذلك اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، وتظهر هذه الصورة في الرواية عندما أخذ الرهبان معينو من أجل تعميده، حيث كان يتعلم اللغة القشتالية ودين النصرى، وعند عودته من الكنيسة يسأله جده عن الحروف التي تعلمها «يبدأ الولد في استظهار تلك الحروف والشيخ يكتبها له بقلمه في اللوح»². ثم «يكتب له بإزاء كل حرف قشتالي ما يقابله من الحروف العربية»³.

¹ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 100.

² : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 51.

³ : المصدر نفسه، ص 52.

إذن من أهم مقومات الثقافة الإسلامية تقديس اللغة العربية لما لها من سحر وبيان، والتي عمل الاسبان على اجتثاثها كونها لغة الجنة: «إن لكلماتها وقعا في النفس والروح، إن الحديث بها عبادة وتسييح من دون عبادة ولا تسييح، هناك شيء من رائحة الجنة في هذه الأصوات»¹.

كما كان الشيخ ابن معن يعلم حفيده تعاليم أركان الإسلام وقواعد التوحيد مستندا في شرحه بنصوص من القرآن الكريم فمثلا «كان يحفظه ما يقول عند رؤية تمثال سيدنا عيسى على الصليب ↓ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ↑»².

إذن كانت ثقافته من مرجعية دينية وعليه: «التثقف بالثقافة الإسلامية فرض على المسلمين سواء تعلقت بالنصوص الشرعية أو بالوسائل التي تمكن من فهم هذه النصوص وتطبيقها ولا فرق بين التثقيف بالأحكام الشرعية، أو بالأفكار الشرعية»³.

والجدير بالذكر أن الموريسكيين كانوا منفتحين على كل أنواع العلوم والمعارف، وتظهر هذه الصورة في الرواية عندما أمر الكاهن خمينيس بجمع المخطوطات وإضرام النار فيها «لقد جمع زبانيته من أهل الكنيسة والجنود تحت القوة والتهديد والقتل، حوالي مليون مخطوط في مختلف الفنون والعلوم والصنائع. ثم جمعت في الساحة الرئيسية لغرناطة، وصعد الكاهن الخبيث منتشيا بهذا الانتصار إلى برج عال في قصر الحمراء الذي بنته يد صناع لا مثيل لصنعتها وفنونها، وأمر الكاهن بإضرام النار في هذا التراث العلمي الإنساني الكبير، الذي جهدت الإنسانية في بلوغه على هذه الأرض»⁴.

¹ : المصدر نفسه، ص 93.

² : المصدر نفسه، ص 53.

³ : سميح عاطف الزين، الثقافة والثقافة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1979، ص 33.

⁴ : عبد الإله بن عرفة، الحواميم، ص 31.

إنها أبشع صورة في حق التراث العلمي الموريسكي وأكبر دليل على ثقافتهم التي لم تقتصر على الثقافة الإسلامية فحسب بل تعدتها لتشمل كل العلوم والفنون.

أراد الكاتب من خلال رصده للصورة الاجتماعية أن يبين لنا أن الموريسكيين كانوا من الطبقة الغنية جدا وتفوقهم في مجال الزراعة والصناعة وكل الفنون والعلوم، كما عرض لنا السبب الحقيقي وراء مصادرة أملاكهم وهو الاغتناء من أموالهم، كما قدموا أرقى صورة عن التمدن والحضارة من خلال التنظيم الذي مس جميع مرافق الحياة كوصل شبكة الماء إلى كل زقاق، وطلاب البيوت والاهتمام بالنظافة، ثم تطرق الروائي للقيم الاجتماعية التي تبناها المجتمع الأندلسي منذ الفتح والتي كانت تتمثل أساسا في التسامح ومبدأ قبول الآخر لذلك أسسوا حضارة عريقة، ولم يسيئوا أبدا للأقليات الدينية بل منحوهم حق ممارسة معتقداتهم كما أشار الروائي أن الطبقة الموريسكية كانت مثقفة وهذه الثقافة من مرجعية دينية، ومن أهم مقومات الثقافة الإسلامية تقديس اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم.

نستنتج مما سبق جملة من النتائج أهمها:

- ✓ كان تصوير الموريسكي في الرواية يباد ومضطهد، وأصبح لا يحس بالأمان، لأنه فقد الوطن، وحرّم من أبسط مقومات العيش الكريم.
- ✓ تصور الرواية جشع وطمع وإرهاب محاكم التفتيش الإسبانية المسيحية للموريسكيين بحيث سلبت دورهم وصادرت أملاكهم ومارست عليهم أبشع أنواع التعذيب بآلات رهيبة.
- ✓ كشفت الدراسة على أنه بالرغم من محاولات التضييق التي مارستها محاكم التفتيش ضد الموريسكيين، إلا أنهم حاولوا المحافظة على دينهم ولغتهم وأملاكهم من خلال القيام بثورات ضد الكنيسة وأحكامها الجائرة التي تصدر باسم الدين المسيحي.
- ✓ لقد رصد الروائي مختلف الأزمات النفسية التي تعرض لها الموريسكي من خلاله إحساسه بالضعف والعجز والقهر والإهانة فأصبح تائها وخائفا من مصيره، بعدما أدرك وتيقن من تجرد المحتل من كل معاني الإنسانية.
- ✓ لقد أثبتت رواية "الحواميم" أن مأساة الموريسكيين وتشريدهم وطردهم من بلاد الأندلس بعدما عانوا من ويلات الاسبان هي من أشد المحن والجرائم الدموية في تاريخ الإنسانية.

❖ المصادر والمراجع:

◀ أ- المصادر:

1. عبد الإله بن عرفة ، الحواميم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010.

◀ ب- المراجع:

2. الأمير شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1403هـ/ 1983م.

3. جمال بوطيب، الرواية العربية الحديثة المرجع والدلالة بحث في انتروبولوجيا الجسد، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2013.

4. جمال يحيوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، منشورات الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011.

5. حسن سالم هندي إسماعيل. الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث دراسة في البنية السردية ، دار الحامد، الأردن، عمان، ط2014.

6. الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور عبد السلام كفاقي والدكتور محمد محمود الصياد والدكتور عاطف وصفي، المجتمع العربي، دار النهضة، بيروت، 1970.

7. سميح عاطف الزين، الثقافة والثقافة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1979.

8. صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بيروت، ط2، 2009.

9. صلاح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1965.

10. عبد الجليل التميمي، تراجم طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الاسبانية والعربية والاسلامية منها، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات فيفري/ شباط 2011، تونس.

11. عبد الله حمادي، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492-1616)، دروب ثقافية، عمان، الأردن، 2016.
12. عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون صفحة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1991.
13. عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2013.
14. عبد المحسن طه رمضان، تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الفكر، عمان، ط1، 2011.
15. عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1995.
16. علي مظهر، محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية، بيروت، 1996.
17. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، 1979.
18. محمد بوعزة، تحليل النصّ السردّيّ تقنيات ومفاهيم، دار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2010، ص 40.
19. محمد عادل عبد العزيز، الجذور الأندلسية في الثقافة المغربية، دار غريب، القاهرة، 2006.
20. محمد عبده حتامله، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، عمان، الأردن، 2000.
21. محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، مكتبة القرآن، القاهرة، 1985.
22. نزار علي الطرشان، مساجد حولت إلى كنائس دراسة تاريخية معمارية في الأندلس، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية للنشر والتوزيع، الأردن، اريد، ط1، 2010.
23. هدى جمال محمد، أزمة المثقف في الرواية الأردنية، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013.

ج- كتب مترجمة:

24. واشنطنون ايرفينج، سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، ترجمه وعلق حواشيه اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

❖ الرسائل الجامعية:

25. محمد الأمين يزيد، أساليب السرد في ملكة العنب لنجيب الكيلاني، مذكرة الماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، قسم اللغة العربية وآدابها، 2015-2016.

26. ديهية توابتية، شانز عروي، خطاب الجسد في رواية الرعشة، مذكرة الماجستير، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2014-2015.

❖ المجلات والمقالات:

27. عبد الله حسيني، الباحث روح الله صفري، صورة البطل في أعمال غسان كنفاني الروائية-قراءة في "رجا الشمس" و "ما تبقى لكم" أنموذجا-، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الخوارزمي، مجلة مركز الدراسات الكوفة: مجلة فصلية محكمة، العدد 42، 2016.

28. مشتاق بشير الغزالي وإلهام محمود كاظم، اضطهاد مسلمين الأندلس (الموريسكيون- Moriscos) في عهد شارل الأول (كارلوس الخامس) 1556-1516، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، العدد 20، السنة الحادية عشر، 2017.

29. محمد التهامي الحراق الحواميم لعبد الإله بن عرفة بين الإبداعي و التاريخي، نشر في المساء يوم 2013/11/13 في موقع إلكتروني

<https://www.maghress.com>

❖ مواقع الكترونية:

30. موقع الويكيبيديا، <https://ar.m.wikipedia.org>

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

أ-ب	مقدمة
الفصل الأول: الموريسكيون في الأندلس	
2	1. نبذة تعريفية عن المورسكيين
5	2. تاريخ المورسكيين
الفصل الثاني: عبد الإله بن عرفة وروايته الحواميم	
22 - 21	1. ترجمة عبد الإله بن عرفة
21	أ- حياته
21	ب- أهم مؤلفاته
28-22	2. تقديم عام للرواية
22	أ- عنوان الرواية
24	ب- ملخص الرواية
26	ج- شخصيات الرواية
الفصل الثالث: تجليات الموريسكس في رواية الحواميم	
30	1. الصورة الجسدية
37	2. الصورة النفسية
45	3. الصورة الاجتماعية
54	الخاتمة
56	قائمة المصادر والمراجع
60	فهرس الموضوعات

ملخص :

يحاول البحث النظر في صورة الموريسكي كما وردت في رواية "الحواميم" لعبد الاله بن عرفة ويقوم بداية بعرض تعريف الموريسكيين وتاريخهم ثم يتحدث عن حياة الكاتب واهم مؤلفاته مع تقديم عام للرواية. وينتهي بدراسة تطبيقية وتحليلية لرواية "الحواميم" ، وذلك باستخراج صورة الموريسكي الجسدية والنفسية والاجتماعية كما تجلت في الرواية. الكلمات المفتاحية :الحواميم،عبد الاله بن عرفة،صورة الموريسكي.

Résumé :

La recherche tente de regarder l'image du Moriski telle qu'elle est décrite dans l'histoire D'Al Hawamim D'Abdel-Ilah Ibn Arafah ,il présente d'abord la définition de Moriski et son histoire ,puis évoque la vie de l'écrivain et ses oeuvres les plus importantes avec une présentation générale au roman et se termine par une étude appliquée et analytique de l'histoire des Hawamim ,en extrayant l'image physique , psychologique et social de Moriski telle que reflété dans le roman .

les mots clés:Al Hawamim ,Abdel-Ilah Ibn Arafah, l'image du Moriski .

Abstract:

The research attempts to look at the image of the Moriski as described in the story of Al-Hawamim of Abdel-Ilah Ibn Arafah .He first introduces the definition of Moriski and their history and then talks about the writer 's life and his most important works with a general introduction to novel ,and ends with an applied and analytical study of the story of the Hawamim ,by extracting the physical ,psychological ,and social image of Moriski as reflected in the novel.

Key words:The image of the Moriski ,Al Hawamim , Abdel -Ilah Ibn Arafah.